



المتنبّي

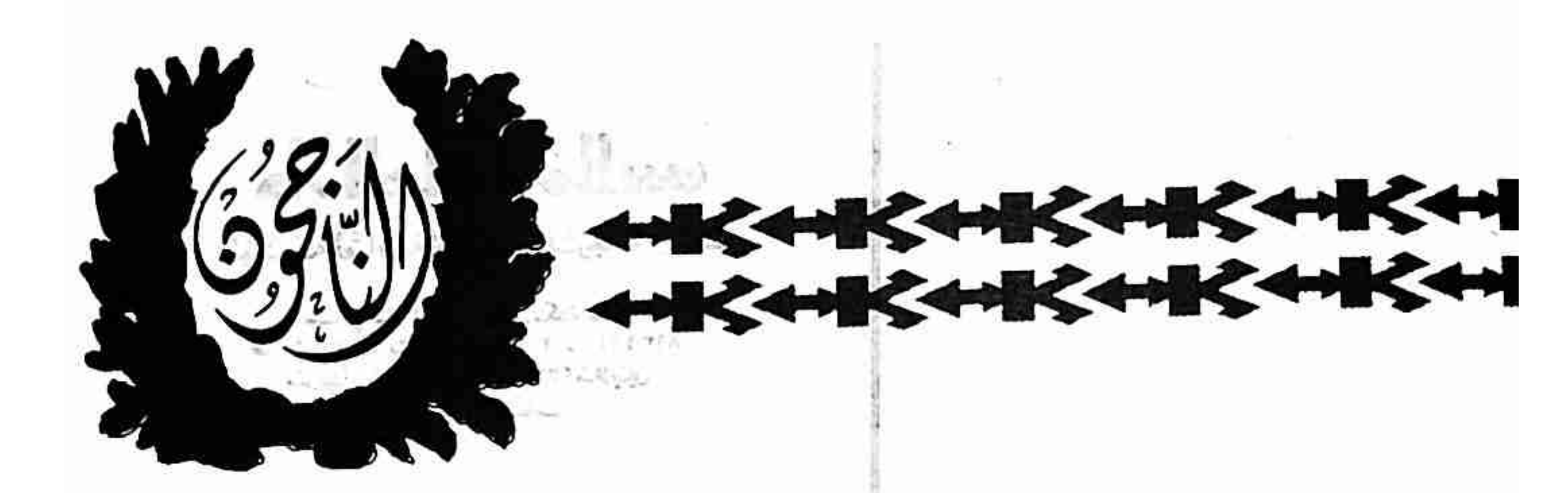
شاعِرُ العرب

دار العلم للملايين

المتنبّي

شَاعِرُ العَرَب

الناجحون



المتنبّي

شَاعِرُ العَرَبْ

طبعة جديدة مَزيدة ومُنقّحة

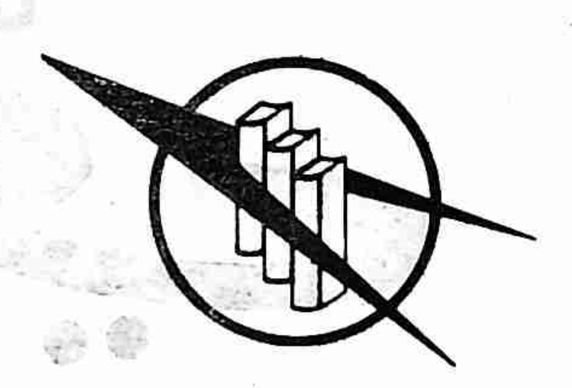
ومُرفقة بمجموعة من الأسئلة المنهجية والمفيدة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر ١٩٩٤

أيَّ مكانٍ أرتقي أيَّ عظيم أتَّقي؟
وكلُّ ما قد خلق الله، وما لم يَخْلُقِ
مُحتَقَرٌ في هِمَّتي كَشعرةٍ في مفرِقي

«المتنبي»

مولد صبي

في حيٍّ من أَحياء الكوفة، يُعَرف باسم «كِنْدة» لا يسكنه إلاّ سقّاءٌ أَو نساج... في يوم من أيام سنة ٣٠٣هـ كان يستهلّ الحياة صبيّ، أبوه يُعرف بِ «عَبْدان» السقّاء، لأنه كان ينقل الماء لأهل الحي، وأُمه امرأةٌ صالحة من أهل الكوفة.

وكان مولد هذا الصبي لا يختلف عن مولد أيّ صبي، ونشأتُهُ تشبه نشأة كل الأطفال: أَبٌ يركض ويحمل جِرارَ الماء ليحصل على قوتِهِ وقوتِ أُسرته، وأُم تعمل في بيتها، وتعتني بطفلها الجديد.

دَرَجَ هذا الصبي في مدارج الطفولة.. ولكنَّ الأَقدارَ كانت قاسية عليه... فاختطفَتْ أُمَّه في الوقت الذي كان الصبيُّ لا يزال محتاجاً إلى عطفها ورعايتها.

مسكينٌ ذلك الغلام!! إنه قلبٌ صغير يتحطم!

وتولّت أمره بعدها جدّتُه، فكانت له بمثابة الأم الثانية ترعاهُ، وتقدم له الحنان الذي يُعوّض عن حنان الأُم.

وهكذا نشأ ذلك الصبيُّ يتيماً، فرضت عليه الأقدار أن يشقَّ طريقه بيديه. هكذا وقع لأكثر العظماء.. لقد نشأوا أيتاماً، يشقُّون طريقهم بأيديهم.

وكبر الصبيّ حتى بات حدثاً، فذهبَ إلى «كُتَّاب» صغير، يتردد عليه أولاد أشراف المدينة، فكان يتعلم دروس اللغةِ العربية شعراً، ولغةً وإعراباً. وفي الوقت ذاته، كان الغلام يداوم على زيارة دكاكين الورّاقِين، وهم الذين كانوا يبيعون الكتب في تلك الأيام، فيجلس إليهم، ويستأجر الكتاب الذي لا يقدر على شرائه، لكي يقرأه أو يستفيد منه.

واشتهر هذا الصغير، في أحياء المدينة بذكائه وحفظه السريع. وقد أخبر ورّاقٌ كان يجلس إليه الصبيُّ يوماً فقال:

«ما رأيتُ أحفظَ من هذا الصغير قطّ!»

فسأله بعض الناس:

ـ وكيف كان ذلك؟

فأجاب:

ـ كان اليومَ عندي، وقد جاءني رجل بكتاب يقع في ثلاثين ورقة ليبيعه، فتناوله منه هذا الصغير وأخذ ينظر فيه بإمعان... فتضايق منه صاحب الكتاب ونهره قائلاً:

ـ أيها الفتى! أنا لم آت بهذا الكتاب لتطالعه، وإنما واهمٌ، والأمر صعب!

ـ وماذا تعطيني إذا حفظتُ ما فيه؟

فقال الرجل هازئاً به:

ـ أنت... أنت تحفظ هذا الكتاب..! إذا حفظتَه أعطيتك إيّاه.

فقال له الفتى:

- إذنْ، تناولْ كتابك، واسمع منّي ما فيه!

وراح يقرأ صفحاتِه سطراً سطراً، بدون توقف ولا ارتباك، فلما انتهى من تسميعه خطف الكتابَ من يدَي الرجل، ووضعه في كُمِّه، وقام. فتعلَّق صاحب الكتاب بالفتى، وطالَبه بالثمن، بخلاف ما وعد.

فقال الصغير:

- لن أُعيد إليك الكتاب! إنّك وهبتَه لي!

وقام الناس على صاحب الكتاب، يوبِّخونه لأنه لم يحافظ على وعده وحكموا بأن الكتاب من حقِّ الفتى!..

وهكذا كان الكتّاب مدرسته الأولى، والورّاقون أساتذته، يقرأ في كتبهم، ويعاشر البدو الوافدين على البصرة. وهم أهلُ فصاحة، فيأخذ اللغة الصحيحة عنهم.

وفي يوم من الأيام، نزلتْ بالكوفة حوادث وحروب، ومن ذلك هجوم «القرامطة» على المدينة - وهم جماعةٌ من الناس كانوا يريدون السيطرة على الدولة العباسيّة وجعْلها تسير حسب نظام خاصٍّ وضعوه لها - فهرب الناس من بيوتهم، هائمين على وجوههم، فراراً من القتل: منهم من اتّجه نحو بغداد، علّه يجد فيها مأمناً؛ ومنهم من تشرّد على دروب الصحراء.

أما هذا الفتى الذي أصبح في السادسة عشرة من عمره، فقد أخذ خمسة دراهم، كان لا يملك سواها، فلفَّها بمنديله وخرج كما خرج الناس، لا يدري إلى أين يسير.

وقد تسأل أيها القارىء الكريم.. وماذا فعل والده في هذه السنوات؟

الواقع أن أباه لم يقصِّر في رعايته، على الرغم من الضِّيق الذي كان يقاسيه في حياته، فقد رافق ولدَه في رحلاته، وانتقل به مرّةً من البادية إلى الحضَر، ومرة أُخرى من الحضر إلى البادية. كذلك وضعه في الكتاتيب ليدرس، كما حمله إلى القبائل ليتعرّف إليها. وكان الفتى كلّما تقدَّم في دراسته ازدادتْ ملامحُ الذكاء والنبوغ على وجهه.

يا له من صغير! كان يتعلّم من الحياة، كما كان يتعلم من الكتب. وكان يحارب مصاعبه العائلية، ويذلّلها بقوة إرادته، وثقته بنفسه. وهو في ذلك فتى عادي تماماً، فبمقدورك أنت أن تذلّل مصاعبك بشيء من الجرأة في مواجهتها والاطمئنان إلى أنك ستنجح في ذلك.

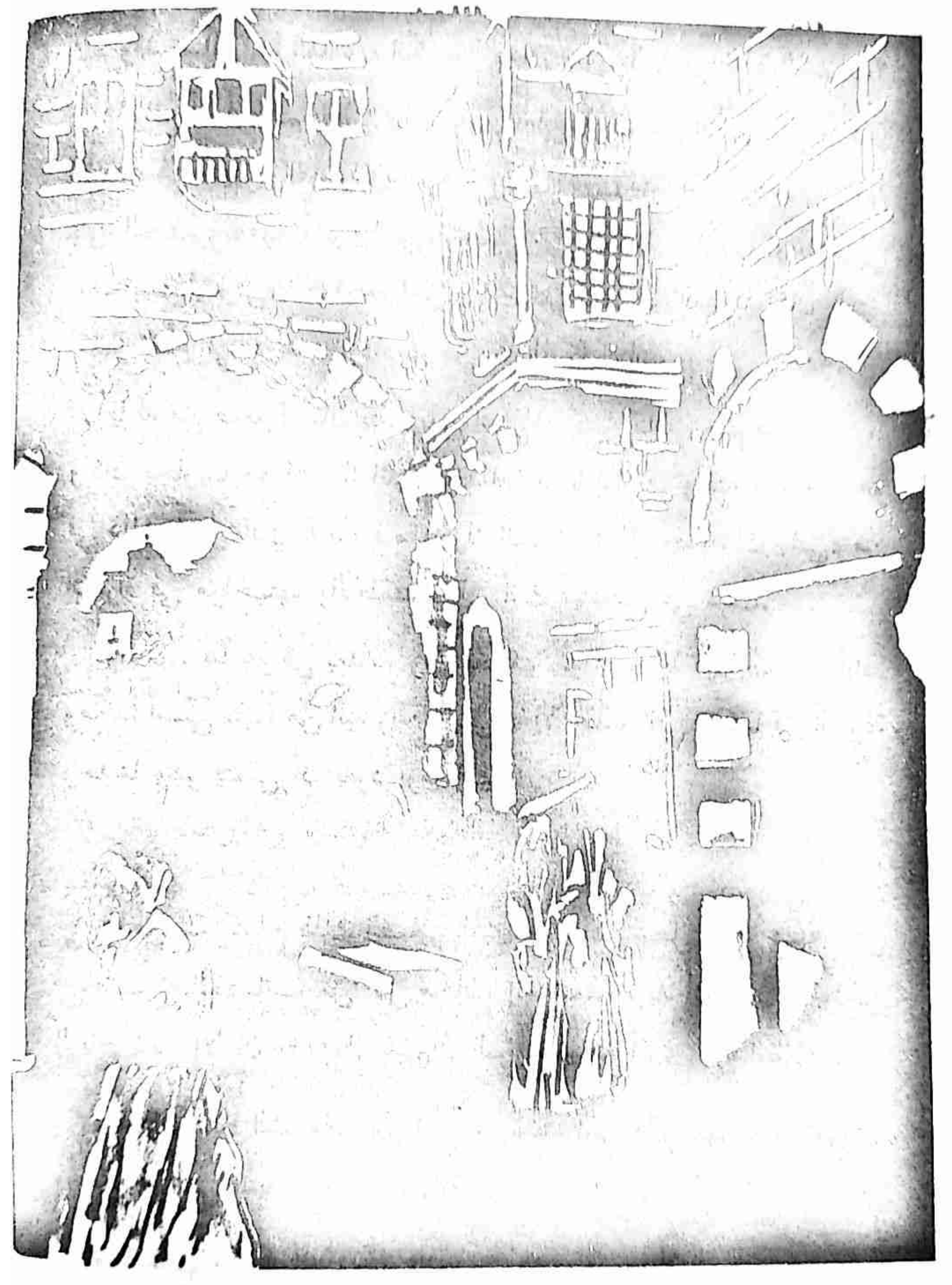
والآن.. ها هو في بغداد. وفي بغداد، بلدِ الخلافة فقدَ صاحبُنا أباه. وهكذا أمسى يتيماً من أبيه وأُمه، ليس له إلا جدّتُه التي تركها في الكوفة وحدها وهو يتمنى أن يعود يوماً إليها!

* * *

هذه قصة كفاح ذلك الصغير الذي ما كاد يكحل النورُ عينيه حتى أحاطت به المصائب من كل مكان. إنه شمعةٌ تريد أن تضيء، ولكن الرياح تأبى إلا أن تطفئها. غير أن النور بطبيعته أقوى من الظلام..

لذا فإن هذه الشمعة.. لم تيأس، وتستسلم، ولم تنهزم. بل ثبَتَتْ، وأضاءت حتى انتصرت في النهاية.

ولا شك أنك مللتَ من الحديث عن صبيّ لا تعرف منه حتى اسمه.. فإليك هو:



الغلام أحمد (المتنبي)

إنه «أحمد» الذي عُرف بعد ذلك بالمتنبّي..

فإذا كنتَ أنت عازماً على أن تكون رجلاً عظيماً في حياتك، نافعاً لوطنك وللإنسانية، وإذا كنت مؤمناً بنفسك. كما كان هذا الفتى ـ فما عليك إلا أن تسير!

وكل من سار على الدرب وصل!

* * *

إذا غـامـرتَ فـي شـرفٍ مَـروم
فـلا تـقـنَـعْ بمـا دُونَ الـنـجـومِ
فطعمُ الـموتِ في أمرٍ حقيرٍ
كطعمِ الـموتِ في أمرٍ عظيمِ

«المتنبي»

نسر في قفص!

إلى متى يبقى «أحمد» في بغداد؟

إن طموحه المتحفِّزَ يناديه إلى الخروج من بغداد!

لقد كان رجال عصره يرحلون من مدنهم وقراهم، وما أسعد حظّ من تهيّءُ له الظروفُ مسكناً في بغداد.. لأن «دار السلام» آنذاك كانت لا تزال مأوى العلماء، ومنزل الأدباء.

ولكنّ المتنبي لم يُعجِبْه المقامُ فيها..!

ولماذا؟

لقد كان عصر المتنبي عَصْرَ طموح وحركة.. وكان كل من يستطيع أن يشقَّ طريقه لامتلاكِ مدينة، أو بناء دولة في هذا العصر، تراه يتقدّم ولا يبالي!

وإذاً، فما الذي يمنع المتنبّي أن يكون واحداً من هؤلاء الطامحين!! وهو الذي يعتقد بأنه أُوتيَ من قوة الطموح وحِدَّة الفكر والذكاء، وشدة الإقدام، ما يجعله واحداً من هؤلاء الطامحين.

لقد اختار لنفسه الخروجَ إلى ديار الشام، حيث لا تزال اللغة العربية صافية فيها، والقبائلُ العربية تنتظر من يَفهمها ويقودها، وديار الشام كلّها خير وبركة..

وليس بعجيبٍ أن نراه ـ وهو في الشام ـ يُصرِّح عن رغبته، بعد أن جمع حوله من الأنصار الذين سحرهم بأقواله، وهزّهم بطموحه... فهو ذلك الفتى الذي سيترك وجوهَ الخيل شاحبةَ اللون في ساحة القتال، والسيفَ بيده ينتظره ليضرب دولة الخدَم.. والأعاجم.

راح المتنبّي يطوف في بلاد الشام، وينظر في أحوال هؤلاء الناس الخاضعين لحكامٍ أجانب وجوهُهم غيرُ عربية: فلا يزيده ذلك إلا ألماً.

أين هي الروحُ العربية التي كانت تناضلُ من أجل العزة والحرية؟

هل انتهى الأمرُ بهؤلاء الناس إلى أن أصبحوا يَعجَبون من رجلَين قتلا فأرة في الطريق، وأبرزاها للناس تعجباً من ضخامة جسمها!!

مسكينةٌ هذه الفأرة التي طلبت القوت، فنزل بها الموت، إذ اتّفق على قتلها رجلٌ من قبيلة «كِنانة» وصاحب له من قبيلة «عامر» ورمياها، ثم أبرزا وجهها كما يفعل الشجعان بالقتيل! ولكن.. يا تُرى من هو الذي أصابها بالضربة القاتلة؟ ومن أَحقُّ بأن يأخذ ثيابها وسلاحها؟ أليست فارساً يحسُن استعمال سلاحه في ساحة القتال؟ ومن هو الذي فاجأها من خلفها، وترك في ذنبها تلك العضَّة الجارحة؟

هذا التهكّم الجارح على أحوال أبناء عصره، وهذه الأسئلة التي مِلؤها السخرية يُطْلقها هذا الغلام الثائر من المَشْهَد الحقير الذي يتفاخر به رجلان قتلا فأرةً.. كل ذلك هو استخفاف بالمعاصِرين.

ألا أين تلك البطولة العربية التي كانت تتبارى في مبارزة الأسُود، ونزال الفرسان في ساحة الطِّعان!؟ أين هي؟!

هل قدَّر الله لتلك البطولة أن يصيبها المسخُ، فتصبح بطولةَ قتلِ فأرة لا أكثر!!

ولكن.. من يَعِيبُ على الناس أحوالهم هذه؟

إنه «أحمد»، ذلك الفتى الذي كانت تموج على ضفائرِ شعره علامات البطولة، وهو صبيٌّ في الكتاب.

وحين قال له أحد رفاقه:

- ما أحسن هذه الضفائر على وجهك!

أجابه أحمد في شيء من التحدّي:

- لكنها لا تحسُن إلا يومَ القتال!

فما السرّ في هذه الأمنية؟

لقد شاهد «أحمد» مرّة شابًّا دون العشرين من عمره، هاجمَ جماعة من خصومه، فقتل عدداً، ولكنه جرح في وجهه. ثم اندمل الجرحُ، وبقي أثرُه على وجهه. وقد كساه حُسناً. فتمنى أحمد لو يخوضُ معركةً كهذه المعركة، ويُصابُ بجرحٍ في وجهه يكسوه حسناً.

في تلك الأيام كانت ديار الشام مقسّمةً بأيدي الطامحين، ولماذا لا يكون المتنبي أحد هؤلاء؟ إن التفرّقَ فيه ضعف، والضعفُ يغري كل مغامِر طموح.. فلماذا لا يستفيد أحمد من ذلك!!

أتنقصهُ الشجاعةُ وهو سيدها؟ أتنقصه الفصاحةُ وهو صاحبها؟ لماذا لا يكون له مكان بين هؤلاء الطامحين؟

في هذه الظروف الملائمة قدِم المتنبي إلى مدينة اللاذقيّة، وضفائرُ شعره تتدلى إلى شحمتي أُذُنه، فأكرمه أميرُ المدينة ثم قال له:

- واللهِ، إنك لشابٌ خطير تصلُح لمنادمة ملكٍ كبير.

فقال المتنبّي:

- ويحك! أتدري ما تقول؟ أنا نبيٌ مرسَل.

ثم تلا عليه شيئاً من قرآنهِ الذي قلّد به القرآن. وسأله الرجل:

- إن لكل نبيٍّ مُرسَلٍ معجزةً، فما هي معجزتك؟

التفت المتنبّي إلى السماء، وكانت تمطر، فقال:

- أنظر! إنني أقف في هذه البقعة، وأمنعُ المطر عن أن يُصيبها، بينما يصيبُ المطر ما حولها.

وكان للمتنبيّ ما أراد، فصدَّقه الأمير، وبايعه على النبوّة، ثم انتشرت بيعته في مدن الشام.

وقد غاب عن الأمير أن ما فعله المتنبّي لم يكن سوى حيلة تسمى «صدْحة المطر» تَعلّمها المتنبّي من أهل اليمن.

إذن.. كان المتنبي طموحاً.. ولكن، ما هو الطريق الذي سيسلكه لتحقيق هذا الطموح؟

هذا ما كان يبحث عنه صاحبُنا، فلا يجده. كان الرجال الطامحون أمثاله يحقّقون طموحهم بمساعدة رجالهم الذين يقاتلون معهم، فأين هم الرجال الذين يُرافقونه ويتْبعونه؟

إن الظروفَ، أحياناً، تقود الرجل إلى اصطناع الحيلة..

من هذه الظروف الملائمة أن المتنبِّي كان في مجلس أمير اللاذقية، وكان بجانبه أحدُ كتّاب ذلك الديوان، وصدف أن انقلبتْ على يده سِكِّينُ بَرْيِ الأَقلامِ، فجرحتْه جرحاً بليغاً. فنهض المتنبِّي مُسرعاً، وتَفَلَ على الجرح من ريقه، وربط اليدَ غير منتظرٍ لوقته، وقال للمجروح:

ـ لا تحلَّها في يومك!

وعدَّ له أياماً وليالي، حتى برىء الجرح.

وأدهش المشاهدين فِعلُه، وصاروا يعتقدون فيه أعظم الاعتقادات، ويقولون هو كمُحيْي الأموات. هذه نتيجة الجهل..

وفي الوقت ذاته، نقَم عليه أُناس لهذا الاعتقاد به، فاضطُر إلى الاختفاء، خوفاً منهم، عندَ بعض أصحابه في اللاذقية. ولمّا أراد الانتقالَ من موضع إلى موضعٍ، خرج بالليل ومعه ذلك الرجل. ولقيَهما كلبٌ ألح عليهما في النباح، ولما أراد الرجل أن ينصرف وحده إلى أهله قال المتنبِّي:

ـ إنك ستجد ذلك الكلب قد مات.

فلما عاد الرجل وجد الكلب ميتاً فعلاً. وراح يُحدّث أهله بما كان، فما ازداد السامعون بأمره إلا اعتقاداً بكراماته.

وهكذا وجد المتنبِّي في ادِّعائه أنه نبيّ، طريقاً إلى تحقيق طموحه. ولمّا استكمل له الأمرُ، وانتشر ذِكرهُ بين الناس أعلن نبوءَته في صحراء «السَّماوة» ونزل على القبائل يستميلها إلى دعواه. ولمّا كان في إحدى القبائل، وحاول أن يُقنعهم بنبوءته قالوا له:

ـ ها هنا ناقة شرسة لا تسمح لأحد أن يركبها، فإنْ قدَرتَ على ركوبها أقرَرنا أنك نبيّ[1] مُرْسَل!

وقرر المتنبّي أن يحاول ذلك.. فمضى إلى تلك الناقة وهي سارحةٌ في الإبل، فتحيَّل حتى وثب على ظهرها. فَنَفرتْ ساعةً، وشردت أخرى، ثم هدأت ومشتْ مستسلمةً آخر الأمر. وورد بها المتنبّي إلى الحيِّ وهو راكب عليها، فعجب الناس له كل العجب، وصار ذلك من دلائل كراماته عندهم.

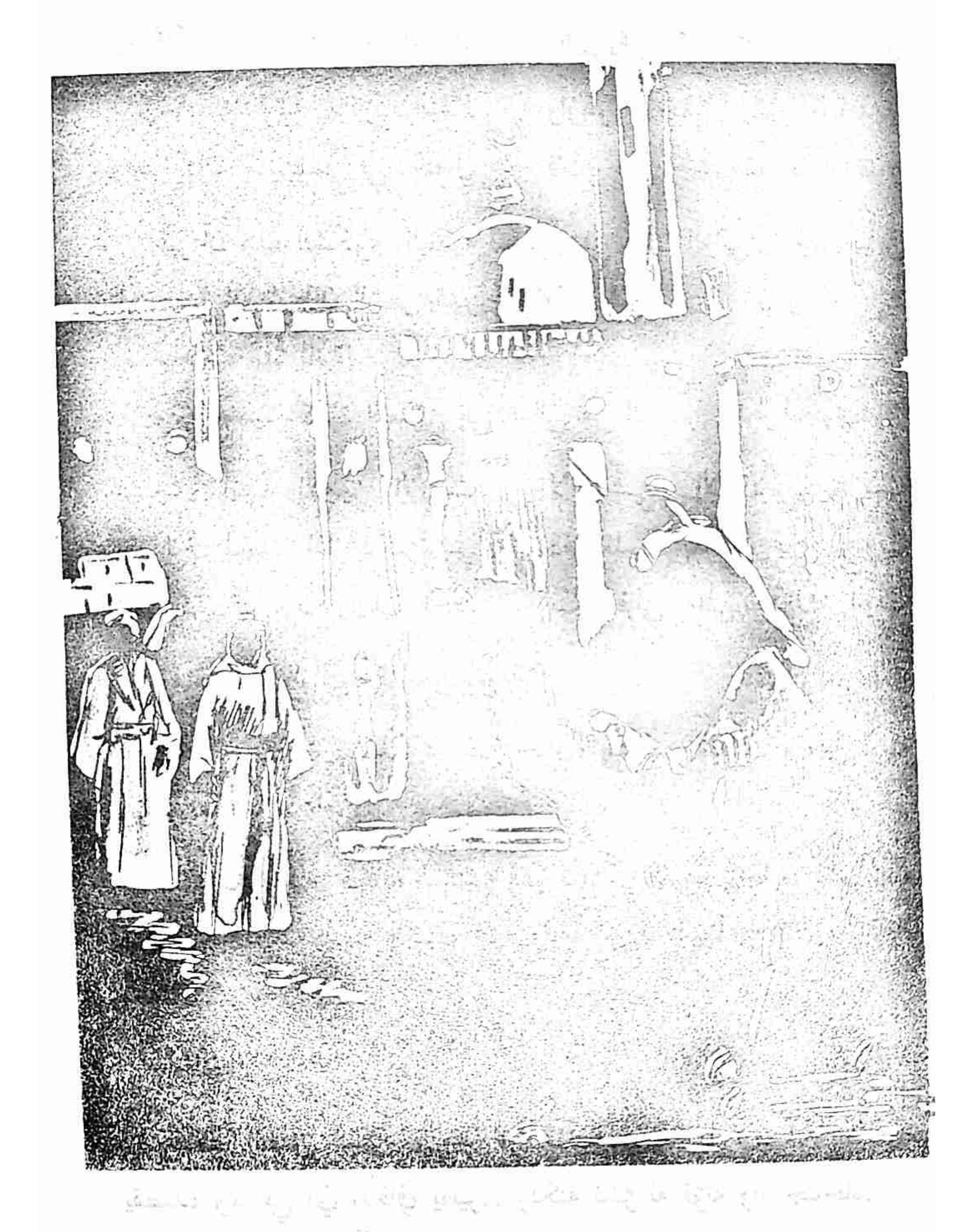
وتبعه بعد ذلك رجال من قبائلَ متفرقة.. فهابه الحكّام، وخشُوا عاقبة انتشار دعوته. لذا هبُّوا لملاحقته طلَباً للقضاءِ عليه، قبل أن يشتدَّ أمرُه، وتذيع الفتنة في بقية القبائل.

وكان ممن خرج إلى تأديبه «لؤلؤ» أميرُ حمص ومعه فئة من جيشه. وقد أدركه في البادية، وجَرَت بينهما موقعةٌ انتهت بهزيمة المتنبي وأتباعه. وهكذا وقع «النبيُّ المدَّعي» في الأَسْر وحُمِل مقيَّداً إلى سجنٍ من سجون حمص، ودام حبسه في السجن طويلاً حتى اعتلَّ، وكاد يتلَف.

بذلك تلاشت أحلامُ المتنبّي في لحظة واحدة، وأدرك أن الطريق الذي سلَكه كان محفوفاً بالمخاطر. فماذا يفعل!!

لقد أصبح همُّه الآن أن يُنقذ نفسَه من هذا السجن المظلم! ولكن، كيف؟ إنه شاعر، والشاعر يستطيع أن يجلب القلوب بقصائده. فلماذا لا يخاطب الوالي الذي سجنه بلهجة الاسترحام؟

وانطلاقاً من هذا الأمل كتب المتنبي من سجنه مخاطباً أمير حمص:



المتنبي يركب الناقة الشرسة

دَعَوْتُكَ عِنْدَ انْقِطاعِ الرَّجاءِ والموتُ مِنِّي كحبْلِ الوريدِ
دَعَوْتُكَ... لمّا بَراني البَلاءُ وأَوْهَنَ رجْلَيَّ ثِقْلُ الحَدِيدِ
وقد كان مَشْيُهُما في النِّعالِ فقَدْ صارَ مَشْيُهما في القيودِ

غير أن هذه الشكوى الباكية لم تؤثِّرْ في قلب الوالي... فهل ييأَس السجين؟ إن شيطان الشعر يقدِر على كل شيء.

ليجرِّبْ مرّةً ثانية!

ومن جديد كتب المتنبِّي إلى الوالي من الحبس هذه النجوى:

بِيَدِي أَيُّها الأَمِيرُ الأَرِيبُ لا لِشَيْءٍ إلا لأنّي غَرِيبُ
أو لأُمٍّ لها إذا ذَكَرَتْنِي دَمُ قلبٍ بدَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ
إن أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رَأَيْتُكَ أَخْطأْ تُ، فإِني على يدَيْكَ أَتُوبُ

وماذا يريد الوالي أكثر من التوبة؟

إنه لا يريد أن يسفكَ دمَ فتىً جريء يعترفُ بخطئه، ويُعلنُ توبته ورجوعه عمّا ادَّعاه.

ولقد دعاه إليه، فجاءه المتنبِّي وهو يُجَرْجِرُ القيودَ برِجليه، ففكَّ عنه قيوده، وأخذ منه التوبة وكتب عليه وثيقةً أَشهدَ عليها ببطلان ما ادّعاه وأنه تائبٌ منه.

وأطلقه!

وهكذا انطلق النسرُ جريحاً من قفَصه... لا يدري: أيَّ الأَجواءِ يقصِد، ولا في أيِّ الآفاقِ يطير.. ولكنه نسرٌ له قوَّته وله جناحاه.

* * *

تَغَرَّبَ، لا مستعظِماً غيرَ نفسه
ولا قابلاً إلا لخالقِه حُكما
ولا خائضاً إلا فؤادَ عَجاجةٍ
ولا واجداً إلا لمكرمةٍ طَعْما

«المتنبي»

في ديار الشام

خرج المتنبّي من هذه التجربة القاسية، وهو ينفض غبار الموت عن رأسه. وقد كان من المألوف أن يهجر ديار الشام، ويعود إلى العراق، ولكنه فضَّل البقاء في سوريَّة، لأنه كان لا يزال يعتقد بأنه سيحقِّق طموحه هناك.

ولكنّ الحياةَ الصعبة تدعوه إلى أن يكافح من أجل الحياة.. وما هي آلاتُ كفاحه؟

إنه مضطر إلى أن يتخذ الطريق التي سلكها شعراءُ عصره طريقاً له، وهو كارهٌ لهذه الطريق، ولكن الحياة أقوى من الكبرياء..

إذاً، كان لا بدَّ له من أن يزور هؤلاء الأُمراء المنتشرين في سورية وما كان أكثرهم! ـ ليمدحهم، وينال على مدحه المكافأة التي يشتري بها لقمة العيش.

لكم كانت الصدمة عنيفةً عليه! أيمدح هؤلاء الأمراء الذين لا يجد فيهم إلا عظاماً نَخِرة، ونفوساً ضعيفة!؟

ولكن.. هي الخاجة، تدفع صاحبها إلى التملُّق، ولو حيناً من الزمن.

راح أجمد يمشي على دروبِ الشام، يمدح هذا الأمير مختاراً، ويمدح ذلك مضطراً، وأين منه أولئك الشعراء الذين كان الشاعر منهم يختص بخليفة أو أمير يمدحه؟

ولكنه، مع ذلك، كان يمدح.. ويمدح نفسه أكثر من الممدوح، لأنه لا يرى أحداً جديراً بالمدح مثلَ نفسه.

وقد شعر الممدوحون بضآلة أنفسهم أمام نفسه، ولكنّهم ما كان لهم حيلةٌ في ردِّه عن كبريائه فكانوا مرَّةً يضاعفون له العطاء، ومرة يمنحونه مكافأة بخْسة من باب تحقيره وإذلاله.. وهو هو في منهجه.. لا يُبدِّله، ولا ينصرف عنه.

إنه يمدح نفسه، وشجاعتَه، وطموحَه، وكبرياءه، ويشكو هذا الزمانَ الخسيسَ الذي رفع مثلَ هذه الأَصنامِ إلى مراتبِ العلياء، ويشكو أهله الخاضعين الذين طأْطأُوا رؤوسَهم لهؤلاء الزعماء.

إنه يسعى وراء المجد والمُلك، ويذكر أن له مطالبَ كبيرة، ويرى نفسه أحقَّ بالسيادة من غيره.

ولكن.. إلى متى يبيع شِعره؟

حقّاً، إن الشِّعر وحده لا يحقق له المعالي التي يطلبُها لنفسه! فما هي الطريقة عنده لتحقيقها!؟

إن الطريقة إلى آماله كائنةٌ في الحرب والفتك وقتلِ الرؤساء!

وفي أحد المجالس يُعرَضُ عليه الشراب، فينفِر منه.. لأنه يرى أن مُلاعَبةَ السيوف والرماح ألذ في نفسه من معاطاة الشراب والكؤوس.

ولكنَّ هذا الغلامَ الثائرَ الطامحَ إلى الملك، فقيرٌ لا يقدر على العيش الرَّغْد، وحيدٌ لا يجد حوله ناصراً ولا مؤيّداً. وليس الذنبُ. كما يرى - بذنبه، وإنما هو ذنب هذا الدهرِ الذي خلق فيه الطموح وقيَّده بالفقر.

ومع ذلك لم يستسلم، ولم يركَنْ إلى الخمول، بل راح يطلب الأسفار، لا يستقرُّ ببلدٍ، ولا يسكنُ إلى أحد.

وكان من بُعد هِمَّتِه، وسعيه وخيبته، غضبُه على الزمان وأهله، حتى حسِب الزمانَ عدوّاً له يحاربه، والناس كلهم أعداءٌ له.

ولكن... هل كان المتنبي يفكر حقًّا في الحروب، والتغلُّب على هؤلاء الأمراء، كما ينطق شعره؟ أم هي أقوال شاعرٍ متكبرٍ يُعزِّي نفسه بالقول بعد أن فاته الفعل؟

ليست لهجتُه التي انفرد بها عن الشعراء بلهجةٍ كاذبة، بل كان يُفكر في الثورة. وحين وجد وسائلها غيرَ ممكنة، ارتقب الفُرص التي تهيِّء له القيام بها.

أو لَم تكن تجربتُه الأولى دليلاً كافياً على ما كان يحدِّث به نفسه؟ ولكن.. ليست كلُّ تجربةٍ يكتب لها النجاح. وقد ظلَّتْ هذه التجربة تصاحب نفسه، في كلِّ مراحل حياته، دون أن تنجح، وحتى أغمض عينيه، وهي لا تزال خيالاً يملأ عينيه!

ولعلَّ الأمير الذي أعجبه، في هذه المرحلة بين هؤلاء الأمراء هو بدرُ ابن عمَّار، الذي كان في فلسطين. فقد أقام عنده المتنبِّي وأطال المقام، ومدحه بخمسِ قصائدَ من جيِّد شعره، تدلُّ على أنه نال منه ما أرضاه، أو رأى فيه من صفات الإمارة ما أعجبه!

ومن ذلك وصفُه الرائع لمبارزة هذا البطلِ للأسد، إذ كان من عادته مبارزةُ الأُسود.

خرج «بدرٌ» يختالُ على حصانه الأدهم، وبيدِه سوطُه، وعلى جنبه سيفُه في غِمده، وللحِصان ثقةٌ براكبه.

وكان الأسدُ في ساحة المبارزة، يضربُ لونُه إلى الحُمرة، كأنه طلى جسدَه بدماء الفرسان الذين قتلهم. وعلى رأسه لِبدةٌ غزيرة الشعر، كأنها الغابة الكثيفة، وفي عينيه لمعانٌ يخطِف الأبصار.

وحين رأى الفارسَ قادماً عليه، تحرَّك للقائه، وراح يطأ الثرى متمهّلاً، مستكبراً، يرفع يدَه ويحطُّها على الأرض كأنه طبيب يجسُّ مريضاً برقَّة، ويردُّ شعره إلى رأسه، كأنه سلطانٌ وضع على رأسِه تاجاً.

وكان كلَّما تقدم قصَّر خطاه، وهو يجمع قوَّته، وينكمشُ على نفسه، حتى تَساوى طُولاً وعرضاً، وتهيّأ للوثوب.

حتى إذا تقابل البطَلان انتفضَ الأسدُ مرةً واحدة وانقضَّ فجأةً وكأنه النجم الساقط على الحصان، وضرب بقبضته مؤخرة الحصان. وهمَّ باختطاف الفارس لولا أن عاجَلَه الأمير بدر بضربةٍ موجِعةٍ من سَوْطه على رأسه. فتراجعَ وهو يزأر، واستعدَّ لينقضّ، ولكن الفارس عَاجَلهُ بضربة من سيفه، فوقع مضرَّجاً بدمائه.

صفَّق الناس لهذه البطولة، إذ رأوْا فيها مشهداً من الجرأة والرجولة. أما المتنبِّي فقد زاغَتْ عيناه لِما رأى، وهتفَ هتفةَ الإعجاب ببطولة صاحبه، بينما كانت تمرّ على عينيه تلك الصورة الحقيرة.. صورةُ الرجلين اللَّذَيْن تفاخرا وتباهيا لقتلهما فأرة كبيرة.

أين هذا المشهدُ العظيم من ذلك المشهد الحقير؟ مشهدُ مبارزةِ الأسود، ومشهد مبارزةِ الجرذ.

حقًّا، إن الحقير للحقير، والعظيم للعظيم.

وبينما كان المتنبِّي يطوف في ديار الشام، منتقلاً من مكان إلى مكان، ورد عليه كتابٌ من جَدَّته في الكوفة. كانت تشكو شوْقها إليه، وطولَ غيابه عنها، وتدعوه إلى أن يزورها، بعد أن ساءت صحتُها، قبل أن يُدركها الموت، دون أن تكتحلَ عيناها بلقائه.

تأثر المتنبِّي لهذا الكتاب، وحرّكه الشّوقُ إلى جَدَّتِه التي قامت مَقامَ أُمه، فتوجّه نحو العراق..

ولكن، كيف الوصول إلى الكوفة؟ وهو لا يأمن على حياته فيها، والكوفة تعيش في جوٍّ من الحوادث؟

انحدر إلى بغداد، وهو يعلم أن جدَّته في لهفة الانتظار، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه..

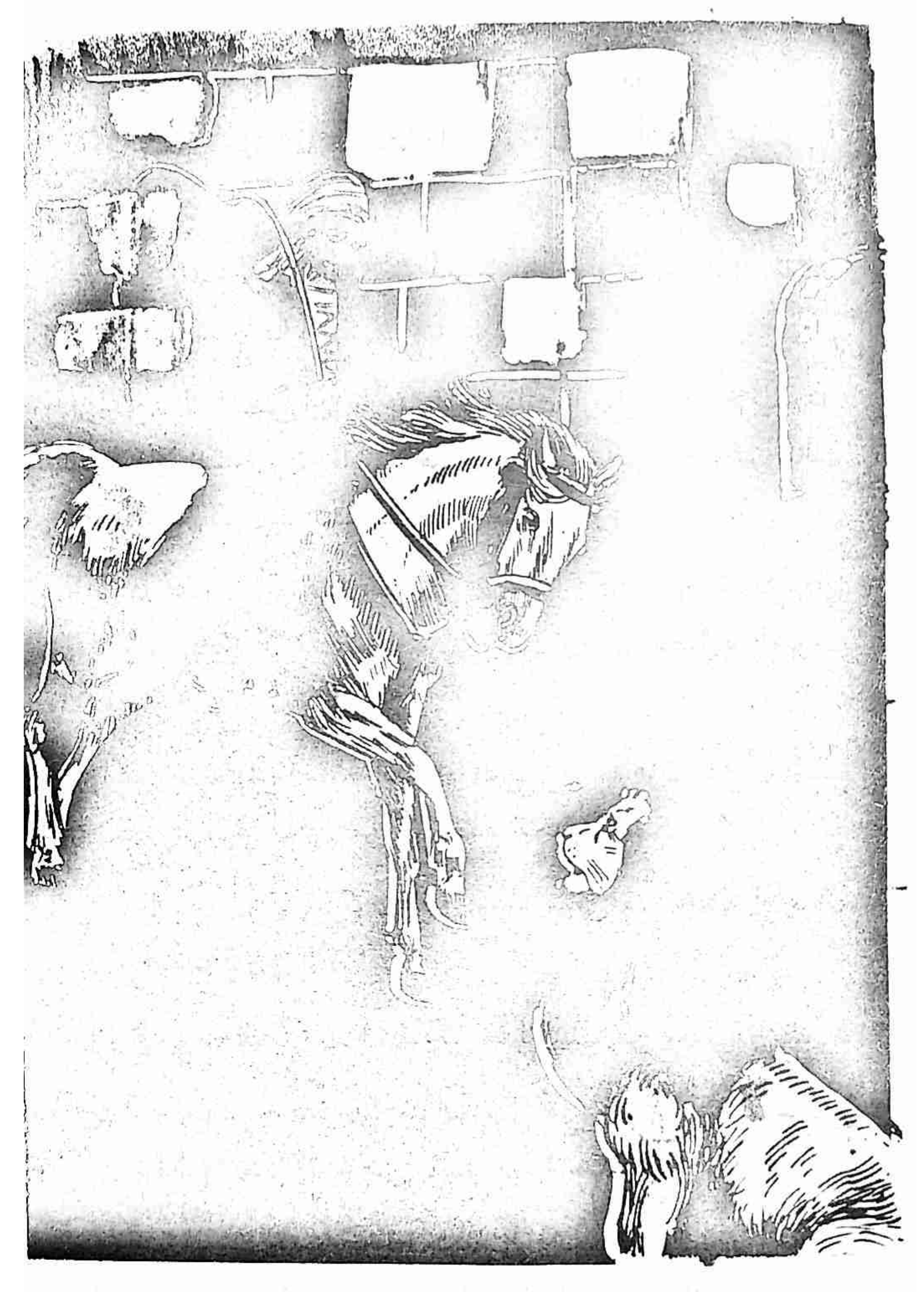
تناولت جَدَّتُه الكتاب، بعد طولِ يأسٍ منه، فقلَّبت الكتابَ ونقّطتْ كلماتِه بدموعها الغزيرة، فأصابتها حُمَّى شديدةٌ على الأَثر سروراً به، وغلب الفرحُ على قلبها، فماتت، دون أن تراه.

وهكذا لم يشأ الحظُّ لهذين المبعدَيْن أن يلتقيا!

وانتظر المتنبِّي حتى ورد عليه الرسول.. لكنّ هذا جاء ينعي إليه جدَّتَه! فكانت الصدمةُ عنيفة، حتى لقد انهمرتْ من عينيه الدموع، تُبلِّل هذه الكلمات:

ـ عجباً! أتموتُ سروراً بي، وأموتُ همًّا بها؟

ماذا رأت في سطوري التي راحت تلثمها حتى استحالَتْ بُقعاً سوداء؟



الأمير بدر الدين يصرع الأسد

لقد طلبتُ لها الحظ السعيد في الحياة، فسبقني الموتُ إليها.

كم كنتَ قاسياً أيها الموتُ عليها! وكيف لي أن أثأَر لها منك؟ وأنت أقوى من الجميع؟

أسفاه! لقد حرمني القدرُ أن أنطرحَ على رأسك وصدركِ مُقبّلاً، وأنتِ في نعشك يا أُمّاه!

ولكن.. لا تشمَتوا أيها الأعداء! فأنا ذلك الرجل الذي تغرَّب، غير مُسْتَعْظِمٍ إلا نفسَه، وغير قابلٍ لأحدٍ حُكماً إلا حكمَ الله، وغير سالكٍ إلا طريقَ الحرب، ولا مُسْتطْيِبٍ إلا طعمَ المكارم.

ألا ما أعجبَ أمورهم! يسألونني في كل مكان: من أنت؟ وماذا تريد؟ وما علموا أن الذي أريده لهو أكبرُ من أن تتصوَّره الخواطرُ والأوهام.

ولكن، ما احتيالي؟ والحوادث تعاكسني؟ وإنه لأهوَن عليَّ أن أجمع بين الماءِ والنارِ في يدي، من أن أجمع الحظ والفهم.

لكنّي، لن أيأس! بل كيف أفعلُ وهذا سيفي قد أعدَدْتُه للأعداء، وجعلتُه تحيّةً لهم يوم اللقاء.

إن نفسي العظيمةَ تأبى أن تسكنَ هذا البيتَ من لحمي وعظمي!

وإذا لم تعطِني الحياةُ ما أريد، فيكفيني أنني عشتُ عزيزَ النفس، لا أخضعُ لحُكْم أحد، ولا أرضى بظُلمٍ من إنسان، مهما كان.

وجفَّف المتنبّي دمعته، وراح يتطلّع إلى المستقبل المجهول بعينين هادئتين، ساكنتين، لا يدري ما تخطُّ له المقادير في ذلك المصير.

لم يكمل المتنبّي سَفَرَه إلى العراق، لأنه لا يريد العودة إلى العراق. وما عساه يريد، بعد أن فقدَ الأهلَ والأصحابَ في العراق؟ وليس له فيه من ناقة ولا جمل!

ليعُدْ، مرةً ثانية، إلى ربوع الشام، وهناك يبحث عن طموحه الذي يناديه!

* * *

وإذا كـانـت الـنـفـوسُ كِـبـاراً
تـعـبَـتْ فـي مُـرادِهـا الأجـسـامُ
من يَهُنْ يَسهُلِ الـهوانُ عـليه
مـا لِـجُـرْحٍ بمـيِّـتِ إيـلامُ

«المتنبي»

دولة على حدّ السيوف!

في أقصى الشمال من «سورية» مدينةُ «حلَب» القائمةُ على الحدودِ الفاصلة بين العرب والروم في ذلك الزمان.

وحول هذه الحدود ظلَّت تقوم معارك متواصلة لا تنقطع، ودماءٌ لا تكاد تَجِفُّ حتى تسيل من جديد.

العيونُ كلُّها ساهرة، والويلُ للعين التي تنام!

كان يملك هذه المدينة وما حولها بطلٌ عُرِفَ بجُرأتِهَ وسطوته وإقدامه، هو عليُّ بنُ حمدان المعروفُ بسَيْفِ الدولة، سليلُ بني حَمْدان.

كان الحمدانيُّون يسكنون ولايات العراق في أول الأمر، وحين ضاق العراق عن مجال طموحهم خرجوا إلى البلاد المجاورة لينالوا منها ما يريدون بالقوّة.

وحين طلب سيفُ الدّولة من أخيه ناصر الدولة ولاية، قال له:

ـ أمامك الشام! وآملِك من بلادها ما تقدِر عليه!

فسار سيفُ الدولة إلى حلَب، فاستولى عليها، حتى وصل إلى دمشق، وكاد يستولي عليها.

ولكن ولاية حلب لم تكن لقمةً يَهْنَأُ بها آكلُها.. لأنها مدينةُ الحدودِ المضطربة، والحروب المشتعلة. إنها أُمّ الثغور بين ديار الروم.

كانت الحدود بين العرب والروم ميدانَ حروبٍ وغارات، منذ فَتَحَ العربُ الشام والعراق. وكلا الروم والعرب كان يطمع في أن يتوغّل في أرضِ الآخر غازياً.

حتى إذا استقر الفتى العربي سيفُ الدولة في حلب، كان عليه أن يُثبِّت مُلكه رغم الزلازل، ويُقيمَ عرشه على حد السيوف. وقد وقف فتى العروبة عشرين عاماً، وهو يردُّ عن الحدود هجماتِ الروم، لم تَخمدْ نار الحرب بينه وبينهم سنةً واحدة.

وكانت له في الروم وقائعُ خالدة، الحرب فيها سِجال، مرّةً له ومرة عليه. وقد تغلْغَل سنة ٣٣٩هـ في بلاد الروم، حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية. ألا لَيتَهُ فتَحها!. لكن هذا كان من نصيب فاتحٍ آخر فيما بعد!

ولئِن ضحك النصرُ له مراراً، فقد خانه الحظُّ مراراً، يوم قاد «نِقْفور» قائدُ الروم جيشاً عرمرماً أحاط بحلب، واستولى على المدينة إلا قلعتها. يومذاك أخْرَبَ الرومُ حلب، وقتلوا وأسروا، ونهبوا دار سيف الدولة، وكانت خارج المدينة، وهدموها.

وكأن الحادثة قد أثرتْ في صحّة سيف الدولة، فأصابه فالِجٌ في يده ورجله، ولكن ذلك لم يُقعدْهُ عن حرب الروم، ولم يُعجِزْهُ عن الانتقام منهم لتلك الوقعةِ، والانتصار عليهم.

لقد كان الأمير التغلبيُّ بطلاً في انتصاره وهزيمته يُمثِّل البطولة العربية النبيلة بتقاليدها خيرَ تمثيل.

ولم يكن الروم وحدَهم الهمَّ الذي يَشغله، فقد كانت القبائلُ العربية النازلة في مملكته تزيد من همومه، وتُثقل عليه الحياةَ بالثوراتِ التي تعلنها بين الحين والحين، فيحاربهم، ويعاملهم بالحِلم والعفو.

وإلى هذا يشير المتنبي:

وسوى الروم خَلْفَ ظهركَ رُومٌ   فعلى أيِّ جانبَيْكَ تَميلُ؟

وما زال هذا شأنُه حتى أدركته الوفاةُ على فِراشه، وهو الذي يتمنّى أن يموتَ واقفاً لا قاعداً، ونُقِلَ جثمانُه إلى «متافارقِين» حيث دُفن في مقبرة أمِّه، خارج المدينة.

وقد جُعِلَ تحت رأسه وِسادةٌ عُجِنَتْ ممّا تراكم عليه من غبار المعارك والحروب التي خاضها، وكان قد أوصى أن توضع تحت رأسه في قبره، لتكون شاهداً صادقاً على جهاده أمام الله، وعِبرةً لمن يتركهم بعده على دفاعه عن الوطن.

* * *

إِذا غـامـرتَ فـي شـرفٍ مَـرومِ
فـلا تـقـنـعْ بمـا دونَ الـنـجـومِ
فطَعـمُ الـموتِ في أمْرٍ حقيرٍ
كطعـم الـموت في أمرٍ عظيـم

«المتنبي»

بطولتان تتعانقان..

من هو سيف الدولة؟

لم يكن سيفُ الدولة برجل السيف وحده، بل كان رجل الأَدب والعلم، كما كان فتى السيف.

كان مجلسُه مجمعَ الرجال، وموسمَ الأُدباء، ومُزْدَحم الشعراء، حتى قيل: «إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابِهِ من شيوخ الشعر وكتَّاب النثر».

كثُر الشعراءُ حول سيف الدولة، ينالون جوائزَه، ويُشيدون بذكره.. فهذا «أبو فراس» ابن عمه أميرُ السيف والشعر، تلمع في عينيه لمحاتُ الطموح، وتهزُّه ذكرياتُ الوقائع!

وهذا الشاعر «السَّريُّ الرَّفَّاء» الذي كان يقضي نهارَه يرقِّع الثياب؛ ويحضرُ مجلسَ سيف الدولة، ليُنشِدَه شعراً صوَّر به جمال وجه الطبيعة!

وهذا الشاعر الوَأْواء، الذي يقول الشعر، ولا يقوى على إنشاده لثقلٍ في لسانه!

وهذا الأَديبُ عبدُ الله بن خالَوَيْه، الذي احتلَّ منزلةَ الأدباء، وقصَّر عن منزلة الشعراء.

وهذا الفيلسوف «أبو نصرِ الفارابي» واضعُ الآلة الموسيقية التي يسمُّونها «القانون»، والذي لجأ إلى سيف الدولة وعاش في بلاطه، وقد زهِد في الدنيا، وعاش أميناً لفلسفته.

وكثيرٌ غيرهم، ممن يَفِدون عليه، من أبواب كثيرة، وأقطار مختلفة، طامعين بجوائزه السخيَّة التي لم يُعرفْ لها مثيلٌ إلا جوائز الخلفاء.

ولا ينسى أهلُ هذا المجلس أعرابيًّا رثَّ الهيئة، تقدَّم إلى سيف الدولة مرةً، والشعراء يُنشِدونه، فأنشده:

أنتَ عليٌّ، وهذه حلبُ   قد ينفَدُ الزاد، وانتهى الطلبُ
بهذه تفخَرُ البلادُ، وبالْـ   أميرِ تُزهى على الورى العربُ

فاهتزَّ سيفُ الدولة إعجاباً، وقال:

«أحسنتَ والله أنتَ!»

وأمر له بمائتي دينار!



أبو الفرج وكتابه «الأغاني»

ومرّة، والمجلس معقودُ الشَّمل، دخل عليه رجلٌ لا يزال وجهُهُ مقنَّعاً بغبار السفر، ألقى التحية على الأمير وجُلَسائه، وأشار إلى حِمْلٍ على دابةٍ خارجَ المجلس. فدعا سيفُ الدولة من يأتي به، وفتحه، فإذا هو كتاب «الأغاني». وإذا الرجلُ هو «أبو الفرَج» الأصبهاني العالم المشهور. فرحّب سيف الدولة بالرجل وهديته، وأشرق وجهه لهذا العملِ العظيم، وأمرَ لصاحبه بألف دينار.

ولكن هذه المجالسَ على وفْرةَ من كان فيها من الشعراء والعلماء ظلَّت تفتقر إلى فتىً واحد، فمن هو؟

لقاء عظيمين

لا يزال المتنبِّي يتنقَّل من مكان إلى مكان وشأنه في ذلك «أنّ كلَّ مكانٍ يُنبِتُ العزَّ طيب». ولكن.. إلى متى يبحث عن هذا المكان الذي يُنبِتُ العز؟

وتشاء المقادير أن تحمله إلى «أنطاكية» حيث كان يقيم الأمير أبو العشائر بن حمدان والياً على أنطاكية من قِبَل سيف الدولة. فمدحه المتنبِّي، فطرب له لأنه سمع منه نغمةً عربية أصيلة، وشِعراً جديداً بروحٍ جديدة. فقال في نفسه:

- ما أحوجَ سيفَ الدولة إلى مثل هذا الشاعر!

ثم إنه حمله معه، ونزلا على سيف الدولة، حيث قدَّم أبو العشائر ضيفَه المتنبِّي إلى سيف الدولة، وأثنى عليه ثناءً حميداً.

وكان المتنبِّي قد تهيّأ للّقاء.. ولما دخل عليه أَنشده القصيدةَ الأولى

في مدْحه. فاذا هو يسمع قصيدةً لا كالقصائد، ويرى في شعره صورةً جديدة لوصف البطولة، لا عهد له بمثلها عند شعرائه. فطرِبَ كثيراً لهذا اللقاء، واعتقد بأن الشاعر الذي كان يبحثُ عنه قد وجده الآن في هذا الشاب الشاعر. فهو حريصٌ كلَّ الحرصِ على ألا يُضيّعَه. وهو مُشوقٌ إلى أن يحتضنَ هذا الشاعر، ويُبقِيَه في بلاطه لتتعانق عنده بطولةُ السيف وبطولةُ الشعر!

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

التفت أبو العشائر إلى سيف الدولة يريد أن يعرِّفه بصاحبه، فقال سيف الدولة:

ـ أتريد أن تعرِّفنا بفتىً خصَّه اللّه بأن يسجِّل بطولات هذا العهد؟ أليس هو المتنبّي؟ إن هذه الضفائر المُتَدَلّية على جبينه تدلُّ على مدى اعتزازه بنفسه!

فأجاب المتنبّي:

ـ لقد أسرفْتَ في حُسن ظنك أيها الأمير!

فقال سيف الدولة:

ـ أبَتِ النسورُ إلا أن يدلَّ ارتفاعها عليها.

فقال المتنبّي:

ـ وأَبت الأسودُ إلا أن تُخضِّبَ جِباهَها بالدماء.

ثم استدرجه سيف الدولة بهذا السؤال:

ـ سمعتُ أنك تبحث عن أمير تمدحه ويعطيك..

فأجاب المتنبِّي:

- ذلك لِمَنْ يريد من يزوِّدُه بالقوت، أما أنا فأريد من يزوِّدني بالبطولة!

فضحك سيف الدولة، وقال:

- لك ما تشاء.. لا تُعطِنا الشعر إلا على قدْر هذه البطولة! سيستطيع ربُّ السيف وربُّ البيان، أن يتعانقا.

فاستحسن المتنبِّي هذا الجواب، لأنه جعلَ ربَّ السيف ورب البيان قَرينَين. وأجابه:

- الشاعرُ العظيم للأمير العظيم! ولكنَّ لي شروطاً.

فَتَعالت همهمةٌ في المجلس، وكان الحاضرون بين منتظرٍ بلهفة، أو ممسكٍ غيظَه، أو مفتون بهذا الرجل.

فقال سيف الدولة:

- اذكر الشروط! إني أُحِبُّ دولة الشعر أن تعتزَّ بأهلها.

- لا أُنشدكَ شعري إلا راضياً..

فأجابه سيف الدولة:

- لا خير فيما لا يبعثُك الرضا عليه.. وبعد هذا؟

فقال المتنبِّي:

- ولا أُنشدُك شِعري إلا قاعداً.

فارتفعَتْ هذه المرَّةَ همهمةٌ مصحوبة بأصوات الاستنكار، والاحتجاج على هذا الشاعر الذي أخرجه اعتزازُه بنفسه عن احترامِ

الأمير، وباتَ الكلُّ يرتقبُ أن يَغضب الأمير، ويُخرجه من مجلسه مطروداً.

ولكن سيف الدولة ابتسم له وقال:

ـ كأنَّك في نفسي! أنشِدْني شعرك قاعداً ـ إن شئتَ ـ أو قائماً. إن الشعر العربيّ يتلفَّتُ إليك.

ولكن أبا فراس الشاعرَ الأَميرَ الذي لا يقلُّ اعتزازاً بنفسه عن المتنبِّي، حرَّكتْه العزَّة، فصاح:

ـ ولكن.. ما هذا الذي يريد منا (صاحبُنا!) المغترُّ بنفسه؟ أيظنُّ أن كرامةَ ابنِ عَمِّي الأمير هانَتْ إلى هذا الحد؟

فخفَّف سيف الدولة من حدَّتِه، وقال:

ـ .. لا يا ابنَ عمي (دَعْه يتباهى) فواللّه ما عرفَ السيفُ دلالاً أحلى من دلال الشِّعر عليه، وما عرف السيفُ مخلِّداً لأعماله كالشعر..

ثم التفت إلى المتنبِّي بهدوء، وقال:

ـ والآن، نريد أن نُملي عليك شروطنا، أيها الشاعر! فهل أنت تسمعها؟

قال المتنبِّي:

ـ قلْ ما تريد!

فقال سيف الدولة:

ـ إن من يرافقُنا في غزواتنا وحروبنا ينبغي أن يكون واحداً منا.

قال المتنبِّي:

- هو كذلك.

ثم أكمل سيف الدولة:

- ولكي يكون هذا الرجلُ منّا ينبغي أن يتمرَّس بعاداتنا، ويتزوَّدَ بعُدَّتنا!

فقال المتنبِّي:

- ولا خير في شاعرٍ يتباهى بالشجاعة وهو لا يملِكها فارتاحت نفسُ سيف الدولة إلى جواب المتنبِّي وقال:

- هناك مروِّضون سيعلِّمونك ركوب الخيل، والضربَ بالسيف، والطعن بالرمح، والرمي بالنبال.

فاهتزَّ المتنبِّي لهذا الطلب وقال:

- لا يَجْمُلُ رنينُ الشعر إلا مرافقاً لرنين السيوف!.

وهنا، انفرجت شفتا سيف الدولة بابتسامة مِلْؤُها الرضا والسرور، وقال:

- لنفرح الآن بمقدَم شاعر! إنه مُشعِل حماستنا، ومحرّك ثورتنا.

خلُّوا له جناحاً خاصّاً به، قريباً من جناح بيتي!

وهكذا اجتمع هذان البطلان: بطلُ الشعر وبطلُ السيف في مكان واحد، كلُّ بطولةٍ تحرّك الأخرى، ساعيةً نحو غايتها.

وانصرف رجالُ المجلس، وليس فيهم إلا حاسدٌ أو ناقم. لأنهم رأوا

في هذا الطارق الجديد مزاحِماً بعيد الهمة، وشاعراً غريبَ اللهجة. سوف يقضي شعرُه على شعرهم. ولعلَّ أبا فراسٍ وحده كان أدرى الناس بطموح هذا الشاعر الغريب، لأنه يُخفي وراءَ نفسه شخصاً يطمح أيضاً إلى دولةٍ غير دولة الشعر. وهو الذي سمع من أقواله:

على قدْر أهلِ العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ

وتعظُمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها وتصغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

* * *

سيف الدولة في صميم المعركة

أقام المتنبِّي في بلاط سيف الدولة، راضياً، قانعاً بما انتهى إليه. وقد وجد في شخصية سيف الدولة، وفي طلبها للمغامرات ما غذَّى به خيالَه وشعره. وكان في أكثر المواقع مصاحِباً لسيف الدولة يخوض الحروبَ معه، ويُلهب النفوس بشِعره الحماسيّ، ولا سيَّما ذلك الشعر الذي صوَّر به تلك المعارك العربية الروميّة التي كانت تتكرَّر على الحدود.

ولم يقصِّر سيفُ الدولة في إكرام شاعره، والإنعام عليه. وكان للمتنبِّي منه ثلاثة آلافِ دينار كلَّ سنة، عدا تلك العطايا الأخرى التي ينالها في مناسبات مختلفة!

ولأوَّل مرة نرى المتنبِّي، الذي بدأ حياته بالشكوى والتمرُّد، يرتاح إلى صُحبة الأمير الكريم، وما يشهد معه من مشاهد الحرب والمجد، فيترك الشكوى ويكفُّ عن حديث الثورة والقتل الذي طَفَحَ به شعرُه الأَول إلا قليلاً نادراً.

ولكن، مع ذلك، يشعر أحياناً بنداء الطموح يناديه، فلا يلبث أن يُصرِّحَ بذلك، دون أن يخشى أية عاقبة.

وحين يفوتُه الفَخار بدولة السيف يلجأ إلى الفخار بشعره، فهو الصوت الأصيل، وكل صوت سواه صدىً لصوته؛ وهو الطائر الغِرِّيد، وكل غناءٍ بعده ترديدٌ لغنائه!

وكيف يطمع أولئك الشعراء في اللَّحاقِ بشاعرٍ لم يصفْ معركةً إلا كان شاهدها، ولم يخرج سيف الدولة إلى غزوةٍ إلا كان مصاحباً له؟ ولم يُعمِلْ سيفُ الدولة سيفه في حرب إلا كان سيفَه ويُقاتلُ العدوَّ معه.

وقد رافق المتنبِّي سيفَ الدولة في أكثر غزواته، ورآه منتصراً مرّة، ومرّةً مهزوماً، ووصَفَ معاركه في حالَي الهزيمة والانتصار.

ومما رآه المتنبِّي موقعةُ الحَدَث... والحدثُ حِصنٌ حصين يُشرِف على حدود الروم: وقد نزل عليه «دُمستق الروم» على حين فجأة، وحاصره حصاراً شديداً، سلّمه مَن فيه إلى الدمستق. فهبَّ سيفُ الدولة بجيشه الصغير عدداً، العظيمِ همةً، وانتزعه من أيدي الغاصبين. وراح يجدِّد بناء القلعة، فوضع الأساس، وحفر فيه بيده، وكانت السماء. قبل وصوله ـ قد أمطرت مطراً غزيراً، جعل ترابَه مُوحِلاً.

وبينما كانوا يبنون، إذا بالدمستق يحيط «بالحدث» في نحو خمسين ألف فارسٍ وراجلٍ، ووقع القتالُ من أول النهار إلى العصر، والمقاتلون ملتحِمون. ثم هجم سيفُ الدولة بنفسه في نحو خمسِ مئة من رجاله ففرَّق جَمْعَهم، وبثَّ الرعبَ في قلوبهم، فظفِر بالدمستق أسيراً، وقتل ثلاثة آلاف من رجاله، وأسر منهم ناساً كثيراً.

وفي ذلك قال المتنبّي في قصيدة رائعة..

أين الحدَثُ، ما بالُ لونها قد تغيَّر؟ هل تعرف لونها الحقيقي؟ وهل تدري: أية غيوم سقتْها فجعلتها حمراء؟

غيوم السماء سقتْها قبل نزول سيف الدولة إليها، وغيوم الدماء من جماجم الأعداء سقتها بعد أن نزل.

وأين ذلك الجيشُ الذي غصَّ بزحفِه شرقُ الأَرض وغربُها؟ وأين الجند من الروم الذين جاءوا يجرُّون الحديد، وجيادُهم غارقةٌ في الحديد؟ تجمّعت فيه شعوبٌ مختلفة، وألسنٌ متفرقة، لا يفهم بعضُها على بعض إلا بواسطة التراجم.

لقد تصدَّى له سيف الدولة.. وضمَّ جناحي جيشه على قلْب ذلك الجيش ضَمَّةً جعلت عسكر الروم متجمدين لا يقدرون على حركة.

هناك وقف سيف الدولة في موقفٍ خطِر، ليس بينه وبين الموت إلا أن يراه. ولكنه كان نائماً عنه..

حتى إذا أذِن النصر ولَّت تلك الجموع مهزومةً تريد النجاة، وأين منهم النجاة؟

وكانت تمرُّ الأبطال بسيف الدولة وهي جَرحى مهزومة، فيما وجهُه وضّاح، مستبشر، وثغره باسمٌ يهتف بالنصر القريب.

ولقد أمر خيلَه أن تطارد المهزومين.. فانطلقتْ واثبةً خَلفهم تُلْقِمُهُم السيوفَ حيث وجَدَتْهم، لا جَبَلَ يمنعهم، ولا حاجزَ يردُّهم، دأبُها الوثوب كالعقبان حين يتّسع لها المجَال، وشأنها الزحفُ على بطونِها كالأفاعي حين تنزلِق.



سيف الدولة وانتصاره في موقعة «الحدث»

وبعد أن انتهت المعركة أتمَّ سيفُ الدولة بناء القلعة، فكان يقرع الحجر على الحجر، كما كانت الرماحُ تقرع الرماح.

وليس بعجيبٍ أن يبدأ المتنبِّي قصيدته في وصف هذه المعركة الخالدة بهذين البيتين الخالِدَيْن:

على قَدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ   وتأتي على قدرِ الكرام المكارمُ
وتعظُمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها   وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

أنا الذيْ نظَرَ الأَعمى إلى أدبِي وأسمَعتْ كلماتي مَن به صَمَمُ
أنامُ مِلءَ عُيوني عن شواردِها ويسهَرُ الخلْق جَرّاها ويختَصِمُ

«المتنبي»

من أنت؟

وهكذا استقرَّ المتنبي في «حلب» عاصمةِ سيفِ الدولة، بعد حياةٍ قلِقة، أشبهَ ما تكون بحياةِ التشرّد. هناك كان سيفُ الدولة يُغذّي خيالَه ببطولاتِه وأُعطياتِه، والمتنبِّي يشعل حماستَه بنغماته.

ولكن هل ظفِر المتنبي بالاستقرار، وهدأت ثورته عند هذا الحد، وهو الذي ليس لطموحه حدود؟

إن الحياة لا تهدأ في جانبٍ الا لِتُثير المتاعب في جانب!

وأوَّلُ ما يصدِمُ العظيمَ، حين يلمع نجمُه، حسدُ الحُسّاد. وقد كان حول سيف الدولة شعراء، كان رزُقهم من عطاياه. فلما طلعت شمس المتنبِّي كسفَتْ نجومَهم، وأبطل شعرُه شعرهم، فكانوا يحسدونه ولا يقِفُونَ عن الوشاية به عند سيف الدولة.

وكانت كبرياءُ المتنبِّي، وفخره بشعره، وتعاليه عليهم، وتفضيل الأمير له ـ كلُّ ذلك مما يزيد حسدَهم وغيظَهم.

وكان غيرُ الشعراء يحسدون الشاعر الأبيَّ على مكانته، وينتقدون تعاليَه وتعاظُمَه.

وهل هناك ما يُرضي هؤلاء الحسّادَ من رجلٍ جعل الدهرَ واحداً من رواة قصائده؟ إذا قال شعراً أصبح الدهر منشداً، وغنّى به من لا يغنِّي مغرِّداً!!

وإذا انبرى أحد إلى مدح سيف الدولة، طلب هو الجائزة لنفسه، لأن هؤلاء المادحين لا يردِّدون إلا شعره هو!

وكان سيفُ الدولة مُغرَماً بشاعره، لا يزيده تعاليه عنده إلا تعالياً، فهو يودُّ أن يسمع منه كلَّ حين قصيدةً في مدحه. وكان الشاعر ينظم كل سنةٍ أربع قصائد أو خمساً غيرَ المقطعاتِ الصغيرة، فكان الأمير يغضب عليه إذا تأخر عن مدحه أو قصّر فيه.

وكان أكثرَ حسّاد المتنبّي تحرشاً به «أبو فراس» الذي لم يستطع أن يرى هذا الشاعر الغريبَ يُنافِسُهُ عند ابن عمّه سيف الدولة. وكان المتنبّي قد شعر بهذا الخصم، ولم يكترث به.

ولقد دخل أبو فراس على سيف الدولة مرّةً غاضباً وقال له:

- إن هذا المدّعي الفصاحةَ كثيرُ الافتخار عليك. وأنت تعطيه كلّ سنةٍ ثلاثة آلافِ دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرّق مائتَيْ دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خيرٌ من شعره!

ولكنّ سيف الدولة كان يسدُّ أذنيه عن هؤلاء الحسّاد، لأنه يعلم أن شعر المتنبّي شيء، ونظمُ هؤلاء شيء آخر.

ولكن.. إلى متى يستطيع سيف الدولة أن يسكت أمام هذه الحملات المثيرة؟

وأخيراً بدأ الجوُّ يكفهرُّ حول المتنبّي، كما أَحسَّ المتنبّي تبدُّلاً في نفس سيف الدولة عليه. ولكنه هو هو، لا يتزحزح عن موقفه، ولا يتنازل عن كبريائه.

بدأ سيفُ الدولة ـ إذا تأخّر المتنبّي عن مدحه ـ يُكثر أذاه ويقدِّم عليه صغار الشعراء، فلا يجيب المتنبِّي أحداً عن شيء، فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة.

عند ذلك، أدرك المتنبِّي أن الأمير قد تغيّر قلبُه عليه، وإلا فلماذا يُفسِح المجال لأعدائِه فينالون منه ما ينالون وهو لا يدافع عنه؟

ها هي السُّحب السوداء تتراكم في الأفق، والعاصفة تُنذر بالصّدام!

وفي ذات يوم دخل المتنبِّي مجلسَ سيفِ الدولة كعادته، وكان المجلسُ غاصّاً بالأمراء والشعراء والعلماء، وليس فيهم إلا حاسِدٌ له، وناقمٌ عليه. ولكن المتنبِّي قد أعدّ عُدّته لهذا الموقف، وهيأ له ما يضرِب به خصومه الضربةَ القاضية.

وسأله سيف الدولة:

ـ ماذا أعددتَ لنا في مجلسنا هذا؟

فنهض المتنبي، بخلاف عادته، وراح يُنشد شعراً يتظلَّم فيه من التقصير في حقّه، وفيه عتابٌ قاسٍ لسيف الدولة الذي فتح أذنيه لوشايات أعدائه.

ولما ردّد المتنبي قوله:

ما لي أُكتِّم حبّاً قد برى جسدِي ‍ ‍ ‍ ‍ وتدَّعي حبَّ سيف الدولة الأمَمُ؟

همَّ جماعةٌ بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة تكبُّره على الأمير..

ولكن المتنبي واصلَ إنشاده:



المتنبي ينشد أمام سيف الدولة

يا أعْدَلَ الناسِ إلا في معامَلتي
فيكَ الخِصامُ، وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ

فنهض أبو فراس غاضباً وقال:

- إنك تمسخُ قولَ غيرك، أهكذا تسرق الشعر!؟

فلم يُبالِ المتنبي بكلامه، وقال:

إذا رأيتَ نيوبَ الليثِ بارزةً   فلا تظُنَّنَّ أن الليثَ يبتسمُ

فأدرك أبو فراس أنه يَعنيه بقوله، وأنه يُحذِّر سيفَ الدولة من الغدر. فصاح:

- ومن أنتَ أيها الحقير حتى تنهشَ أعراضَ الأمير في مجلسه!؟

فاستمرَّ المتنبِّي في إنشاده، حتى قال:

سيعلمُ الجمعُ ممّن ضمَّ مجلسُنا بأنني خيرُ مَن تسعى به قَدمُ
أنا الذي نَظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي مَن به صَممُ

فما زاد ذلك أبا فراسٍ إلا غيظاً وحنَقاً.

ولما انتهى المتنبي إلى قوله:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني
والسيفُ والرمحُ والقِرطاسُ والقلمُ

قال أبو فراس:

ـ وماذا أبقيتَ للأمير من فضلٍ إذا وصفتَ نفسك بكل هذا؟!

إلى أن ضَجِرَ سيفُ الدّولة من كثرةِ المناقشة في هذه القصيدة، وكثرة دعاوي المتنبيِّ فيها، فضربه بالدواةِ التي بين يديه، فقال المتنبِّي على الفوْر:

إن كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا فما لجرحٍ إذا أرضاكُم ألمُ

وحين سمع سيف الدولة هذا البيتَ أعجبه معناه وزال عنه ما في نفسه من غضب. لقد رضيَ عنه في الحال، فقرّبه إليه، وقبّل رأسه، وكافأه. وهكذا استطاع المتنبِّي بسحرِ لسانه أن يقهر خُصومَه، ويردّ كيدهم في نحورهم.

ولكنّ الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد.. فبقدر ما استطاع المتنبِّي أن يجتذب سيفَ الدولة إليه، لم يزِدْ في عداوة حسّاده إلا اشتعالاً.

فلما انصرف من المجلس، وملءُ جيوبه دنانيرُ وهدايا، وقف له

رجالٌ مجهولون في طريقه، فلما رآهم شَعَرَ بأن هنالك مكيدةً تستهدف قتله. فسلّ سيفه من غِمده، وحملَ عليهم، وجرّهم إلى الصحراء فرمى أحدُ الغِلمان حصانه بسهم فأصابه في نَحْرِه. فانتزعه المتنبِّي، ثم كرّ عليهم، فضرب أحدَهم، فقطع قوسَه، وأصاب ذراعَه، ومضى عنهم ناجياً بنفسه.

ثم إنْه عاد إلى مدينة «حلب» مستخفياً عند بعض أصدقائه، وهو يحدّث نفسه:

- هل من غربةٍ ثانية؟ لست أدري: إذا ترحّلتُ عنهم، فهل أنا الراحل، أم هم الراحلون؟

شرُّ البلاد مكانٌ لا تجد فيه صديقاً، وشرُّ ما يكسبه الإنسانُ مكسبٌ فيه ذلٌ وهوان.

وراسل سيفَ الدولة بما أصابه، فأنكر الأمير أنه أمَرَ بما وقع للشاعر، ودعاه إليه. فدخل الشاعرُ دارَ الأمير بعد تسعةَ عشرَ يوماً، حيث استقبَلَهُ الغلمان وأدخلوه إلى خِزانة الألبسة، فألبسوه وطيّبوه.

وبعد ذلك دخل على الأمير، فرحّب به وسأله عن حاله، وهو مستحٍ، فقال له:

- رأيتُ الموتَ عندك أحبّ من الحياة عند غيرك.

فقال الأمير:

- بل يُطيلُ الله بقاءَك!

ثم ركب المتنبي، وركب معه جماعةٌ كثيرةٌ من المُعجَبين به، وأتبعه الأمير هدايا كثيرة.

ولكن المتنبِّي، برغم ذلك، لم ينخدع بهذه البروق الكاذبة، وأدرك أنه إن نجا هذه المرّة فقد يكون مصرعُه في المرة القادمة، وأعدّ نفسه للرحيل..

هل يكون عزمه على الرحيل عن سيف الدولة لهذه الأسباب وحدها؟ أم أن داعي الطموح تيقّظ في نفسه، وناداه ليرحل نحو «ذلك الشيء الذي لا يسمّى»؟

إنه بلغ درجة عاليةً في بلاط بني حمدان، ولكن، ماذا يصنع بقلبه الذي لا يُقنعه شيء؟

إن حُبّ المجد والسلطان، والتطلُّعَ إلى الغَلبة والتملُّكِ لا يزال يستولي على نفسِه. فليْرحَل إذَنْ، كي يلتمس طموحَه وغايته في أقطار الأرض!

وكان آخر العهد بالشاعر عند سيف الدولة، حين أنشده قصيدته التي يهنِّىءُ بها ذلك الأميرَ الشجاعَ بانتصاره على «البطريق» الروميّ الذي أقسم عند مَلكِهِ أنه ذاهبٌ إلى مقابلة سيف الدولة، وسأله أن يُنجده بالرجال ففعل. ولكن ظنّه خاب، واستطاع سيفُ الدولة أن يكذّب قَسَمَ خصمِه، ويُوقِعَ به وبأصحابه، حتى تجفَّلَتْ خيلُهم، وتمزّق جمعُهم، فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهم بعد أن فارقتها الحياة.

وفي نهاية القصيدة يخاطب المتنبِّي سيفَ الدولة، وهو يشير إلى رحيله عنه تلميحاً:

لا تطلُبَنّ كريماً بعد رُؤيته! ولا تهتمّ بشعر بعد شاعره!

فكان هذا القول إشارةً إلى الوداع.

بِمَ التعلُّلُ؟ لا أهلٌ، ولا وطنُ ولا نديمٌ، ولا كأسٌ، ولا سكَنُ
أُريدُ من زَمَني ذا أن يُبَلِّغَني ما ليسَ يَبْلُغُه من نفسِهِ الزَّمَنُ

«المتنبي»

من أين؟ إلى أين؟

وأخيراً، عزم المتنبّي على الرحيل!

هل يستأذنُ سيفَ الدولة في الرحيل؟ إن سيفَ الدولة لن يأذن له بفِراقه..

هل يفرُّ من حلبَ بدون إذن!؟ في هذه الحالة لا مفرَّ له من أن يبلغ دمشق، قبل أن يعلمَ سيف الدولة بخروجه.

وحين عزمَ على الخروج لم يُعلِمْ سيفَ الدولة بعزمه على ذلك، بل أوهمه أنه سائرٌ إلى خارج المدينة، ثم سُرعان ما يعود إليه.

أسرع المتنبّي بالوصولِ إلى دمشق، حيث لا سلطانَ لسيف الدولة عليها!

وقد أقام هناكَ لا يدنو من أحد، ولا يتّصل بأحد. ولكن أخبار هربه من حلب لم تلبث أن ذاعت في الأقطار، ووصلتْ إلى «مصر» حيث كان يحكم «كافور الإخشيدي».

وكافور مَثَلُه كمثَلِ الأمراء في عصره، كلهم يودُّون أن يرَوْا في قصورهم شعراءَ يمدحونهم. لذا نجدهُ سرعان ما اغتنم تلك الفرصة، وراسل المتنبي، ودعاه إلى زيارته شاعراً مكرَّماً.

وحين لم يردَّ عليه المتنبي، ثنّى كافور برسالة أُخرى، يؤكِّد فيها عليه أن يزوره!

ولقد ضحك المتنبّي بنفسهِ كثيراً، وعجب كيف أن لمثل كافور وهو في أصله عبدٌ مملوك ـ أن يطمع يوماً في مدحه. وجعل يحدِّث نفسه:

ـ أيُّ رجل يقصده بعد سيف الدولة؟ وماذا عسى يتحدث الناس عنه؟ هل يترك جِوارَ بطلٍ أميرٍ كسيف الدولة، إلى جِوار رجلٍ ساعدتْه الظروف العمياءُ أن يكون حاكم مصر؟

ومن هو كافور؟

لقد جاءته الأنباء عنه.. بأنه انتزع إمارة مصر من ابن سيِّده الإخشيد، القاصر، بعد أن دسَّ له السُّمَّ في طعامه وأزاحه من طريقه. وعند ذاك لَم يجد أعيانُ مصر مفرّاً من تأميره عليهم، وبذلك استولى على مملكة مصر وأصبح فيها السيدَ المطاع.

وراح المتنبي يحاور نفسه:

ـ ولكن.. هل كان يمكن كافوراً أن ينجح بدون مواهبَ تساعده على بلوغ ما أراد؟ ألم يكن شجاعاً، ذكيًّا، مغامراً يتبع طموحه؟ نعم ليس الغريب أن يطمح كما طمح غيره، ولكن الغريبَ أن ينجح حيث لا يُقَدَّر لغيره النجاح.

إنه يليق به هو أن يتّخذ من كافور مثلاً يقتدي به..

إن كافوراً . وهو العبد المغمور ـ قد وصل إلى مبتغاه.. والآن، أنتَ، يا متنبِّي، ألا تستطيع أن تصل إلى مبتغاك؟ أنت أوفر منه حظًّا، وأعلى مقاماً، وأذْيَعُ صِيتاً؟

لماذا لا تجعل من كافور سُلَّماً ترتقي به إلى غاياتك؟

لماذا لا تقصِد مصر، وتثير أعوانه وأعداءَه عليه؟ وتتسلَّم مفاتيح مصر منه؟

أوهامٌ... تصوّرات... آمال، كان يَغَصُّ بها صدْر المتنبِّي.

وأخيراً عزم على السفر إلى مصر ولقاءِ كافور، مجذوباً بهذه الأوهام. وهو في الوقت نفسه يُفكر في أمرِ سيف الدولة.

لم يكن سيفُ الدولة رجلاً طارئاً في حياة المتنبِّي، ولم يكن مجرَّدَ لعبةٍ صاحَبَها المتنبي زمناً، ثم سئم منها.. كلا، لقد كان سيف الدولة جزءاً من حياته، ونبوغه، وهو - برغم غضبه عليه - لم يكن منكِراً لحبه وبطولته، ولكنَّ الذي كان يقصده المتنبِّي هو الإمارة.. وهذه فوق ما كان يناله من عطايا سيف الدولة. فالحقّ إن المدح الذي خصَّه به لا يمكن أن يكون كاذباً.

لذلك، حين أصرَّ على الذهاب إلى مصر، كان بينه وبين قلبه تردُّدٌ في الذهاب. وقلبه قلبُ شاعر رقيق ألوف، لو قُدِّر له الرجوع لفارقَ شيبه الأبيض موجعَ القلب باكياً على فراقه.

والآن، بماذا يردُّ على قلبِه الذي يذكِّره بصداقة سيف الدولة، ووجوب حفظ عهودها؟

أجاب المتنبي قلبه:

- مهلاً! أيها القلب! إنني أنا صاحبك، وأنت الذي تخفق في صدري وحدك. ليس من حقِّك أن تميل إلى حبّه وتُعرِض عن حبي!

لقد كان غدّاراً، فكن أنت وفيّاً له رغم غدره!

إنك تشكو ألم الفراق... وتستعير بدموع العين عليَّ... فلستَ بقلبي إذا رأيتُك شاكياً، وليست هذه الدموع إلا دموعَ الغدر، إذا جرَتْ على أثر الغادرين.

ألا يكفيني ما قاسيتُ من كرمٍ مصحوب بالأَذى؟ ومن حسدٍ عكَّر عليَّ حياتي؟

أقِلَّ اشتياقَك أيها القلب، واتبع طريقي الجديد!

وهكذا قطع المتنبِّي روابط تلك الصداقة السابقة، واختار لنفسه وجهةً جديدة. لكن... كيف يريد أن يدخل مصر؟

أيدخلها شاعراً مكسور الخاطر، وقد ضاقت به الحِيَل، ودفعته الحاجة إلى هذه المنازل؟

لا... لا... إن نفسه الكبيرة أبتْ عليه أن يدخل مصر إلا كما يدخلُها الأبطال، في موكب حافل، تجري به الخيل.

وهكذا دخل المتنبِّي مصر دخولَ الفاتحين، فتلقّاه كافور واحتفى به، وأخلى له داراً من دُوره لنزوله.

ومصر كلها تردد:

- لقد وصل المتنبِّي! لقد وصل المتنبِّي.

وفـؤادي مـن الـمـلـوكِ، وإن كـا

نَ لِـسـانـي يُـرى مـن الـشُّـعـراءِ

«المتنبي»

قلب ملك ولسان شاعر

أقام المتنبِّي بمصر زمناً، وهو يُكرِمُ كافور بمدائحه، لكنّ هذه المدائح تختلف في جوهرها عن مدائحه السابقة لسيف الدولة.

إنه لا يريد من هذا المدح مالاً، ولا هدايا.. إنه يريد ما كان يحدِّثُ نفسه به منذ الصِّغر: ولايةً يتولاها.

وفي الوقت نفسه، كان يرى نفسه مساوياً لكافور. أليس هو القائل لكافور:

وفؤادي من الملوك، وإن كا نَ لساني يُرى من الشُّعراء؟

وجديرٌ بمثل هذه اللهجة أن تُخيفَ كافوراً، وتُعْلِمَه أنه أمام مِلِكٍ لا شاعر! وكلما ألحَّ المتنبِّي في الطلب ألحَّ كافور في التهرُّب.

وهو في كلِّ قصائده، يكرِّر سؤالَ كافور أن يعيِّنه والياً ويجرِّبه. ولكن الأيام كانت تمرّ، ويأسُ المتنبِّي يزداد شِدّة.

أهكذا تأبى الأيام إلا أن تبعِد عنه الأحبّاء، وتقرِّب منه الأعداء؟ ألا قاتَلَ اللّهُ الأيام التي تترك كل بعيدِ الهمة فيها معذَّباً محروماً!

ولكن.. ليُعِد الكرَّة! وليذكِّره في مناسبة بما يريد! وليُفْهمه أنه لم يترك منازله ويفارقْ أهله من أجل مال حقير!

وكافور الذي كان يخشى على مُلكه، أمسى أخوفَ ما يكون من طموح هذا الشاعر.

وذاتَ يوم، كان المتنبِّي وحده، يُفكِّر في هذا المصير الذي انتهى إليه، وقد فاتَهُ الماضي، وتنكر له المستقبل، لا يرى في مصر إلا الإهمال، ولا يسمع في غيرها إلا الشَّماتة. يومذاك ترامى إليه أن خُصومَه في حلب، وكأنهم لم يرضَوْا بما أصابه، حتى أخذوا يُعلِنون عن موته، فراح يناجي نفسه:

- بماذا أُعلِّلكِ يا نفسي، وقد فقدتُ الأهل والوطن، وابتعدَ عني النديمُ والسكَن؟

أردت من زمني شيئاً، لا يناله الزمنُ نفسه!

ما بال هؤلاءِ الذين نَعَوْني في الحياة؟ ويلٌ لهم! هل ينجُون من الموت الذي تمنَّوهُ لي؟

كم يقتلونني، وكم يُميتونني، وأنا أَشقُّ أكفاني وأخرج من قبري!

بل لعلَّ الذين نَعوْني قد ذاقوا الموت قبل أن أذوقه أنا!

إن نفسي تعرف طريقَ الهرب حينَ يضيِق بي المقامُ في مصر هذه.

وبعد اليأس المرير، اعتزلَ المتنبِّي بنفسه، وانقطع عن مدْح كافور مدة طويلة، دون أن يتفقّده كافور، أو يُبديَ شكًا في أمره.

وكأن المقادير التي أمْعَنَتْ في محاربة الشاعر، أضافت إليه مصيبة جديدة إلى مصائبه!

«أهذه هي حَصيلَتُك الأخيرة، سعْيك ودنياك، في طول العمر وعرضه، أيها المتنبِّي؟

رجلٌ مُهمَلٌ في زاوية من زوايا الإهمال، في غرفة ضيِّقة. يملُّه الفراش حيناً، وحيناً يَمَلُّ الفراش!

العُوّاد قليل، والفؤاد عليل، والحسّاد كثير، والمَطْلَبُ عسير!

لقد طرحكَ الداء فامتنعتَ عن القيام.

ألا أين الرِكابُ التي كانت تخطِر أمامك، ووراءك؟

أين الراياتُ التي كانت تخفِق فوق رأسك؟

أين الأمجادُ التي كانت تحيط بك؟»

* * *

من كل هؤلاء الأصدقاء والزوّار الذين كانوا يتزاحمون على أبوابه، لم يحفظ عهدَه منهم إلا زائرةٌ واحدة، كانت جديرةً بالوفاء.

ولكنها زائرةٌ كان الحياء يغلِب عليها، فلا تزوره إلا في جُنح الظلام. يبذلُ لها الفُرشُ الليّنة والوسائدَ الناعمة، فتأبى أن تبيتَ إلا في عظامه.

لقد ذهبَتْ، وعادت، وهي تذهب وتعود في مِيقاتٍ معلوم، حتى أصبح يراقِبُ عودتها، مراقبة العاشِق لمحبوبته، وهو خالٍ من الشوق. ويصدُق وعدها في الحضور. ويا له من صدقٍ مؤلم!

ولكن، من هي هذه الزائرة التي هبطت على المتنبِّي؟

إنها الحمّى الراجعة!

يا لمهازلِ الزمن! ألا يكفيه ما طرحَ على كتفيه من مصائب، حتى فاجأه بالمصيبة الأخيرة؟

«ولكن... كيف وصلتِ إليّ أيَّتها الزائرة؟

لقد وصلتِ متأخرة؟! وأدركتِ مني جسداً متهدِّماً، لم تُبقِ فيه المصائبُ عزماً ولا دماً!»

ويأتي الطبيب يتفقد حاله، فيراه منتكساً، فيتّهمه بطعام أفسد عليه صحته...

«ولكن ما أجهلَ هذا الطبيب! لقد جمع طبُّه كلَّ شيء، ولكنه جَهِلَ أن علَّتي هي الراحةُ والقعود.. وأنا الذي تعوّدَ أن يخوض الحروب، ويخرج من غبار معركةٍ إلى غبار أخرى».

وقاوم المتنبّي مصيبتَه الأخيرة، بالصبر والتماسك، لم يحنِ لها رأساً، ولم يُذِلّ لها نفساً!

إنه يريد الآن أن يغيظ كافوراً، بعدما يئس من وعوده الكاذبة. وليس أفضل في إشعال غيظه من مدحه لرجالٍ يستخدمهم كافور ويخشاهم في وقت واحد!

من هؤلاء الرجال «فاتِك» الملقبُ بالمجنون لشجاعته وإقدامه. وكان «فاتِك» في أيام كافور مقيماً «بالفيّوم» في مصر، وهو بلدٌ كان كثير الأمراض لا يَصِحُّ فيه جسم، وإنما أقام به «فاتِك» أَنَفَةً من مُصاحبةِ كافور وحياءً من الناس، أن يرُوه راكباً معه.

وكان كافور يخافه ويُكرمه فَزَعاً، وفي نفسه منه ما في نفسه. وحين

استحكمت العِلّة في بدن فاتكٍ، وأحوَجتْه إلى دخول مصر دخلها. ولم يمكن المتنبّي أن يزوره، مع أن «فاتكَ» كان يسأل عنه، ويراسلُه بالسَّلام.

ثم التقيا في الصحراء... ولا يدري أحدٌ على ماذا دار الحديث؟ ثم افترقا وأرسل فاتك إلى منزل المتنبِّي هديّة قيمتُها ألفُ دينار من الذهب، وأتبعها هدايا بعدها.

وأمام هذا العطاء كان لا بُدّ للمتنبِّي أن يمدحه، فمدحه وهو يعلم ما بينه وبين كافور من العداوة. وأودع في مدحه إياه ما يجرح شعورَ كافور.

ولكنه، مع ذلك، لم يُرِدْ أن يهجر كافوراً هَجْراً كاملاً، فعاد إلى مدحه، وفي مدحه النغمةُ ذاتُها، والمطالبُ ذاتها...

إِنه ذلك الشاعر الذي لا يهمّهُ أن تُرفَع الحُجبُ دونه، وبينه وبين ما يريد ألفُ حجاب!

إنه ذلك الشاعر الذي له أشياء وأشياء. أما المال فهو شيء حقير عنده، وأَما الوُدُّ الصادق فهو كلُّ شيء...

حقّاً، لو كان المال كلَّ ما يقصده المتنبِّي من كافور لأشبعه بالمال حتى أغرقه، وما كان لكافورٍ أن يبخَل عليه بالمال لو استزاده منه.

ولكن المتنبِّي يطمع في ولاية، أو إمارة، شأنَ كافور نفسه...

إنه يغنِّي، وكافور يشرب... أليس في كأسه فَضْلةٌ من شراب؟

هل يشكّ كافور في استخدام هذا السيف؟ لماذا لا يجرِّبه؟ فإما أن

يُهمله، أو يستعمله. وماذا يفيده الذهب، وهو الذي لا يطمح إلا إلى المفاخر والمعالي؟

لم يكن كافور غافلاً عما يريده المتنبِّي، ولم يكن المتنبِّي غافلاً عن المخاطر التي يتعرَّض لها هو حين يُصارح كافوراً بما يقول. ولكن المتنبِّي العظيم النفسِ، الأبيّ، الصريحَ القول ـ لم يُبالِ أن يقول ما في نفسه، غير حاسبٍ حسابَ العواقب.



المتنبي وزائرته الوفية (الحمّى الراجعة)

حتى رجعتُ، وأسْيافي قوائِلُ لي:

«المجدُ لِلسَّيفِ، ليسَ المجدُ للقَلَمِ»

«أُكتبْ بنا أبداً بعد الكتابِ بهِ

فإنَّما نحنُ لِلأَسيافِ كالخَدَمِ»

«المتنبي»

بين لصوص البادية

بعد أن يئس المتنبِّي من تحقيق ما كان يحدِّث به نفسَه، فكَّر في الرحيل! ولكن.. كيف يستطيع الرحيلَ ويأمَنُ على نفسه والطريقُ طويل؟

لقد أنزل كافور الشاعرَ الأبيَّ داراً فخمة، وظنّ أن هذا يكفيه.

ولمّا طالَبه بولايةٍ وَعدَه بها، خافه كافورُ حين رأى بُعد طموحه. ولمّا ألحَّ المتنبِّي في تحقيق وعدِه وقع كافور في حَيْرةٍ من أمره، لا يدري ما يفعل.

أيعطي هذا الشاعرَ الطموح ولاية ويعرّض مُلكه للخطر، أم يتركُه يذهبُ حيث شاءَ فيعرِّض نفسه للهجاء؟

لقد فضّل كافور أن يُبقيَه عنده شِبْهَ سجين، وترك حوله جماعة كانوا يراقبون داره، ويَترصَّدُون حركاته، ويتعرَّفون من يدخل عليه.

ولكن المتنبّي الذي اعتزم الرحيل، لبث في الخفاءِ يدبِّر وسائل رحيله. لقد أعدَّ كلَّ ما يحتاج إليه على مرِّ الأيام، لا يعلم به أحد من غلمانه، بلْ هو يُظهر الرغبة في الإقامة، ويقابل الابتسامَ بالابتسام.

وفي ليلةٍ مظلمة خرجَ وحده، ودَفنَ رماحه في الرمل، وحمل الماءَ على الإبل، وهيّأ زاداً يكفيه أياماً.. ثمَّ عاد إلى منزله.

هذه ليلةُ عيد الأضحى... الناسُ في هرْجٍ ومرْج، ومشاعلُ العيد تسطع في أحياء القاهرة، والجنود يَغْدُون ويروحون استعداداً للعيد، وقصرُ كافور مشغولٌ بزينة العيد...

والمتنبِّي وحدَه، في دارِه الخالية... حيث تتراقصُ أشباح يأسه على أضواءِ شمعةٍ باهتة النور.

وتذكَّرَ المتنبِّي.. وأرسل نفسَه وراءَ الماضي البعيد، وأمام المستقبل المظلم..

«إنه العيد.. وبأيِّ حالٍ عُدتَ يا عيد؟

أما الأحبَّة في «حلب» فالصحراء دونهم..

وأما أنا فلم يترك الدهرُ في قلْبي ولا كبِدي بقيةً للحياة والحب!

وأما الخمرةُ التي ألجأ إليها لِتخدِّر همومي فليس وراءها إلا الهمُّ والسهر!

ما كان أخيبَ آمالي العريضة حين نزلتُ بكذَّابين يجودون باللِّسان، ويحبِسون ضيفَهم عن الرحيل!

كيف أقبلَتْ نفسي على مدْح عبدٍ غادر، فَتَكَ بابنِ سيّده، وانتزع منه المُلكَ انتزاعاً؟

يا له من عبدٍ؟ ومتى كان للعبيد دولةٌ وسلطان؟ ومتى ساوى العبيدُ الأحرارَ؟ يا لَمَهازلِ الزمن! هل مات الأحرارُ وخلا الجوّ لهذا العبد فجعَلَهُ يتحكّم في بَقِيَّتِهم؟»

بهذه النّجوى المؤلمة كان المتنبِّي يحدّث نفسه، في تلك الليلة!

ولمّا سَكَن اللّيل، وهدأت الحركة، أيقظ المتنبِّي غلمانه، وأطلق دوابَّه، وأمر بالسَّير الحثيث وهم لا يدْرون أين يريد؟

وكان من عادة كافور أن يستقبلَ العيدَ بيومٍ تُعَدُّ فيه الخِلعُ للزُّعماء، والعطايا والهدايا لجنده وأهلِ الرُّتب في جيشه.

وخلالَ ذلك يتقدَّم المهنِّئون، وبينهم الشعراء ينشِدون.

تفقَّد كافورُ المتنبِّي.. فلم تقع عينه عليه.. وسأل عنه، فلم يدرِ أحد من أمره شيئاً. عند ذاك أرسل كافورُ رجالَه إلى منزله يتفقَّدونه ويحملونه إليه، فعادوا ليخبروه أن الدار خاليةٌ من سكانها، وبأيديهم ورقةٌ مخطوطة تركها المتنبِّي على فِراشه. فقرأها كافور، فإذا هي الهجاء..

جُنَّ جنونُ كافور، واضطرب فوق عرشِه، وصاح بجماعته:

- ائتوني بالمتنبِّي حيّاً أو ميتاً! ابحثوا عنه في الأرض والسماء!

واضطرب الجمعُ في المجلس، وتنكَّد جو العيد، وعمَّ الصمتُ إلا قعقعة السلاح من رجالٍ ركبوا جيادهم، وتقلَّدوا سلاحهم، وطاروا يبحثون عن المتنبي. وكان كافور شبهَ ذاهلٍ في مجلسه، يتخيَّل المتنبِّي قد نجا من يده، ونزل في مكان آمِن، وراح يصبُّ عليه سهام هجوه صبًّا. وهو في الوقت نفسه لم ييأس من أن يظفَر به أعوانُه، ويعيدوه إليه ذليلاً مقيّداً..

ماذ يُعدّ هذه المرة؟ وماذا يخبِّىء له من عقاب، جزاء له على هذه الجرأة؟

ولكن المتنبِّي... قد أعدّ لكل شيءٍ عُدّتَه..

لقد فكَّر في أن كافوراً لن يتخلَّى عن طلبه، وتصوَّر أن الخيلَ الآن جادَّةٌ في أَثره، وأنها تمرّ بكل مكان وتقطع كلّ طريق!

لذلك، لم يجعل درْبهُ على طريق معبَّد. وقد ساعدَه الليل على الاختفاء، وركِبَ الصحراء... وهو أعرفُ الناس بمسالكها المجهولة.

كان يمرّ بقبيلة بعد قبيلة، وحي بعد حيّ، منه ما يُسالمه، ومنه ما يُقاومه، وهو يقهر الصِّعاب بشجاعته.

من الصحراء أشرف على «حِسمى» ذاتِ الأرض الطيِّبة... فكانت أولَ روضٍ ينزل فيه بعد الصحراء، روضٍ يُنبت جميع النبات، جبالُه تنطح السّماء، ومنها ما لا يقدر السائر أن يصعد عليه.

في هذا الروض البعيد عن العيون أقام المتنبِّي شهراً..! بينما راح كافورُ يكتب إلى مَن حوله من العرب بشأن القبض على المتنبِّي، ويَعِدُهُم الوعود، ويخصّص لهم الجوائز والمكافآت.

وكان «الطائي» الذي نزل عليه المتنبِّي، رأى عنده سيفاً مستوراً، فطمع فيه. وسأل المتنبِّي أن يُطلِعه على السيف، فلم يفعل، لأنه كان سيفاً مصفَّحاً بالذهب، غالي الثمن، نادر الوجود. فراح «الطائي» يحتال على العبيد، ويُغريهم على أن يسرقوا السيف من صاحبه.

فلما أنكر المتنبِّي أمْرَ عبيده، ووقَفَ على مكاتبة كافورٍ لكلّ الأَعراب الذين حوله ليقبضوا عليه، لقاء مكافأةٍ سنيَّة ـ بعث من عنده رسولاً إلى فتى في البادية، يقال له «فُلَيتة» لينزل في حِماه. فوافقه الرجل

على ذلك. وترك المتنبِّي عبيدَه نِياماً، وتقدّم إلى الجِمال، فشدَّ عليها الأحمال، خوفاً أن يغدر به بعض عبيده في اللَّيل. فلم يعلموا برحيله حتى نبّههم، وسار تحت الليل، والقوم لا يعلمون رحيله.

وأخذ أحدُ العبيد في الليل السَّيفَ، فدفعه إلى عبد آخر، ودفع إليه فَرسه، فانتبه المتنبِّي، والتقى الاثنان عند الحصان. وسلَّ العبد السيف، فضرب رسَنه، وضرب المتنبِّي وجه العبد، فخرَّ على الأَرض وانتظر الصباح.

وسار المتنبِّي على غير هُدىً، ليخدع الذين يطمعون فيه، حتى أطلَّ على مشارف الكوفة.

وبذلك، لم يسلك المتنبِّي طريقاً معهودة بين مصر والعراق. ثم إنّه تجنب طريق الشام، إذ كانت في سلطان كافور.

ولقد أثبت المتنبِّي بحقٍّ، ما ادّعاه في شعره من الجرأة والقدرة على الأسفار، باللَّيل والنهار، والخِبرة بالبوادي. وهكذا صدق حين قال:

الخيلُ واللّيل والبيداءُ تعرفُني
والسيفُ والرُّمح والقِرطاسُ والقلم

بلغ المتنبِّي الكوفةَ بعد ثلاثة شهور من خروجه من مصر. وكان يخرج من باديةٍ إلى بادية، حتى إذا أناخ، راح يُحيِّي خيله التي حملته في هذه القفار، إلى أن أسلمتْهُ إلى طريق النجاة، ويقبّل أسيافَه ويمسحها من دماء الأعداء:

لِتعلَم مصرُ ومَنْ بالعراقِ ومَنْ بالعواصم: أنّي الفتى

وأنّي وفَيْتُ، وأني أبيْتُ وأني عَنوْتُ على مَن عنا
وما كلُّ مَن قال قولاً وفى ولا كلُّ من سِيمَ خَسْفاً أبى..

وقد آن له أن يُصفّي حسابه مع كافور الذي مدحه..

وما كان ذلك مدحاً له ولكنَّه كان هَجْوَ الورى...

في هذه المنازل التي أصبح آمناً فيها على نفسه، لم يترك المتنبِّي مناسبةً لهجاء كافور إلا هجاه فيها.

وحين بلغه موتُ صديقه «فاتك» في مصر، حمل على الزمان الظالم الذي يُميتُ مثلَ «فاتك» ويترك حاسدَه «كافوراً» في الحياة.

ويعود إلى المتنبِّي إيمانُه بالسيف والقوَّة والثورة..

إنه يعود من كلّ هذه التجارِب المريرة، والكفاحِ المتواصل، ليقرِّر هذه الحكمةَ ويقول:

حتى رجعتُ، وأقلامي قوائلُ لي
المجدُ للسيفِ، ليس المجدُ للقلمِ
أُكتُبْ بنا أبداً بعدَ الكِتاب به
فإنَّما نحنُ للأسيافِ كالخَدَمِ

وهكذا يُدرك المتنبِّي أن العالم الذي يعيشُ فيه هو عالم السيف، فبالسيفِ يقضي الأمور، وبالسيف يبلغُ المرءُ ما يتمنَّى... أمّا دولةُ القلم فهي خادمةٌ لدولة السيف...

كلَّما رحَّبتْ بنا الروض قُلنا:

«حَلبٌ قصدُنا، وأنتَ السبيلُ»

«المتنبي»

رسالة برسالة

«سلام عليكِ يا مدينتي الحبيبة! يا مسكَن طفولتي! وبيتَ حداثتي! إنني أشمّ في ترابك ريح أُمّي وأبي!

«ها إنني أعودُ إليكِ محطَّم النفس، نافضاً يدي من الآمال التي حلمتُ بها.

«ولكن... ما الذي تغير على أرضك؟

إنكِ لا تزالين كما كنت.. مسرحاً للأحداث والفِتن، ومجالاً للطامعين. ألم تتعبي من الحياة والعناء؟ ألا تميلُ عيناك إلى النوم بعد السهر الطويل؟»

بهذه النَّجوى الرفيقة الحزينة كان المتنبِّي يناجي مدينته التي وُلِدَ فيها، ونشأ فيها..

لقد فرَّ صغيراً من الأحداث والدماء، وعاد إليها كبيراً، ليراها غريقة في الأحداث والدماء!

ففي ذاتِ يوم فاجأ العدوّ مدينة الكوفة ورُفعت الراياتُ، وتعالت الأصواتُ، فخرج المتنبِّي على الصوت، وقد أوجعه أن يغزو الطامعون مدينته الحبيبة. إنه الآن يدافع عن عزّتها، ويحمي تراب والدَيه!

ولقِيَتْه قِطعةٌ من الخيل، في ضاحية الكوفة، فقاتلَها ساعةً، فانهزمت

وقد جُرح فيها مَن جُرح، وقُتل فيها من قتل. وسار إلى جَمْعِ السلطان، مستعيناً بأعوانه، وعادوا من غدٍ، فاقتتلوا إلى آخر النهار، فلم يصنع العدوُّ شيئاً، ورجع خائباً. وعاد بعد أربعة أيام. فالتَقْوا، وكثر القتل في الجانبين...

وما زالوا يتبادلون القتال، حتى جاءت النجدةُ من بغداد، يقودها أبو الفوارس... فانسحَبَ العدوُّ من الكوفة. ودعا أبو الفوارس المتنبِّي إليه، ليهنئه على ثباته ودفاعه، وأهداه ثياباً نفيسة من الحرير وهدايا ثمينة. وراح المتنبّي يمدح صاحبه، ويُنشده في ساحة الميدان، وهما على جواديهما.

وبعد أن استقرّت الحالة زار المتنبِّي بغداد.. وله ببغدادَ ذكريات عزيزة... ولكن، أين بغدادُ عاصمةُ الدنيا، وكرسيُّ الخلفاء؟ لقد استبدّ بها الأعاجم، وعاثت فيها الفوضى، وزالت عنها كلُّ المحاسن.

ولقد أثار المتنبِّي أن يطمع هؤلاءِ الأعاجمُ في مدحه، فانصرف عنهم، ومِلءُ نفسِه الإباء. فسلَّطوا عليه الشعراء الذين كانوا أبواقاً للحكَّام، فلم يردَّ على شاعرٍ منهم، لأَنهم أحقرُ في نَظَرِه من ذلك.

وإنه لفي هذه الحيرة، وهذا الألم من تلك الأوضاع الفاسدة، إذ وَرَدَ عليه ابنُ سيف الدولة، الذي سمع بخروج المتنبِّي من مصر مُغضَباً، فطمع أن يعود إليه، وهو يعلم أنه رمزُ بطولته.

وفي الحق، كان كِلاهما يبحث عن الآخر، ولكن الكبرياء تمنع كلَّ واحد منهما من الذهاب إلى الثاني... حتى تواضعَ سيفُ الدولة أمام إباء المتنبِّي، وراسَله، وحمل إليه الهدايا، ودعاه إلى العودة.



المتنبّي يقتل عبده القادر

ولكن المتنبِّي الذي يتوقَّد حنيناً إلى سيف الدولة، كان ما يزال يخشى أذى أعدائه. فردّ عليه بتلك الرسالة الرقيقة:

فهمتُ الكتاب، أبرَّ الكتُبْ فسمعاً لأمرِ أمير العرب
وطَوعاً له، وابتهاجاً به وإنْ قصَّر الفِعلُ عمّا يجِبْ

ثم يقول معتذراً عن الرجوع إليه:

ما عاقَني غيرُ خوفِ الوشاة وإنَّ الوشاياتِ طُرْقُ الكذِبْ
وقد كان ينصرُهُمْ سَمْعُه وينصُرُني قلبُه والحسَبْ

وماذا يُفيدُه أن ينصُرَه قلبُه، إذا كان سمعُه ميّالاً إلى وشاياتِهم وكذبهم؟ ولا ينسى أن يُشيدَ بموقف سيف الدولة من أعدائِه الروم الذين يُحيطون به، وتُحيطُ بهم، ويذمُّ أولئك الذين جبنُوا عن الجهاد ومالأوا العدوَّ عجزاً منهم أو خوفاً منه.

ولا يكتفي المتنبي بهذه الرسالة، بل نراه يوضِّح غايته في قصيدة أُخرى، يتغنَّى فيها بفضائل سيف الدولة. وهي أصفى قصائده، وأصدقُ مدائحه، لأنه يردِّدُها عن مجرّدِ إعجابٍ ببطلِه، دون طمعٍ في عطاياه!



المتنبي يعود إلى الكوفة

وأيّاً شئتِ، يا طُرقي! فكوني!
أداةً ، أو نجـــاةً ، أو هـــلاكـــا

«المتنبي»

نهاية المطاف

وتشاءُ الأقدارُ أن يجتاز المتنبي بمدينة «الطَّفِّ» فنزل بأصدقاءَ له كانوا يستعدُّون لقتال عبدٍ اسمه «ضَبَّة» من طبعه الغدرُ، فدَعوا المتنبّي إلى أن يُرافِقَهم، فركب معهم، وهو كارهٌ لذلك.

وحين أحاطوا بالعبد، دخل حِصنَه، وامتنعَ به، وأقاموا عليه أيّاماً، لا سلاحَ له إلا شتمُهم من وراء الحصن أقبح شَتم، وهم لا يملِكون حيلةً للتغلُّب عليه.

وأراد القوم أن يُجيبوه بمثل ألفاظِه، فسألوا المتنبّي أن يهجُوهَ، فتكلَّفَ لهم على مشقَّة، وهجاه، وخاطبَه على ألسنتِهم بمثلِ لهجته.

هل أقدم المتنبّي على هجاء هذا العبد لنفسه؟ أم رأى في هذا العبد صورة كافور نفسه، فهجاه كأنه ينتقِمُ لنفسه من كل العبيد؟

وعادوا من هذه الغزوة خائبين، دون أن يتمكنوا من «ضبّة».

وفي هذه المرة، نرى المتنبّي يُحوِّل رِكابه نحو الشرق... نحو بلاد فارس، حيث اختلط فيها العرب بالفُرس، وحيث كان ـ هنالك ـ أدباء وعلماء، رفعوا رايةَ اللغة العربية، والثقافة العربية.

من هؤلاء ابنُ العميد الأَديبُ والكاتب الذي كان على ولاية «أرَّجان». وطالما سمع بالمتنبّي، الذي صار على قربٍ من دياره، وكان في نفسه حسدٌ منه لشُهرته التي طارت في الآفاق.

ولكن.. ماذا ينفعُ الحسدُ في إطفاء ذكره؟ إن الحظَّ لا يُغالَبُ، والمتنبِّي ذو حظٍّ عظيم من الشهرة.

ولمّا أشرف المتنبِّي على «أرَّجان» وجدها ضيّقة البقعة والمساكِن، فضرب بيده على صدره وقال:

«تركتُ ملوكَ الأرض يتعبَّدون بي، وقصدتُ صاحبَ هذه القرية، فيا لسَخافة الزمان!»

ثم وقف بظاهر المدينة، وأرسل غلاماً إلى ابن العميد، فدخل عليه، وقال:

- مولاي، المتنبِّي خارجَ البلد.

وكان ابنُ العميد مضطجِعاً على فراش محشو، في وقت القَيْلولة، فهبَّ من مضجعه، وتأكد من الخبر، ثم أمر حاجِبَه باستقباله. فركَب الحاجبْ وأمرَ من لقيَه في الطريق بالركوب معه تكريماً للزائر الكبير، وكان يقول:

- المتنبِّي قادم. هلمُّوا!

وخرج من البلد بجمعٍ كثير، فتلقَّوه، ورحّبوا به، وأعظموا لقاءه، وأدخلوه البلد.

ولمّا دخل على ابن العَميدِ قام له قياماً مستوياً، وطُرح له كرسيٌّ عليه وسادةُ حرير. وقال ابنُ العميد:

- كم كنتُ مشتاقاً إليك يا أبا الطيِّب!

وتحدث المتنبِّي عن سفره، وما لقيَ في الطريق ثم استهلَّ هذا اللقاء بقَصيدةٍ يصوِّر فيها بلاغة «ابن العميد» وسعة ثقافته وهيبَته، حتى كأنه حين لِقيه، لقي جميع الفاضلين السابقين.

وحُقَّ للمتنبي أن يستشعِر الهيبة والتواضع أمام أديبٍ كبير كابنِ العميد، والأديبُ يخاف الأديب.

وبينما كان المتنبِّي يتهيّأُ للعودة إلى الكوفة، إذا برسول الأمير «عضُد الدولة» إلى ابن العميد يسأله أن يدعو المتنبِّي إليه، فاعتذر المتنبِّي عن الرحيل وقال:

- ما لي ولِلْعَجَم!

- لكنَّ عضدَ الدولة أفضلُ مني.. وهو يعطيك أضعاف ما وصلتُك به.

كلا، إن حظِّي سيءٌ مع هؤلاء الملوك... أقصد الواحدَ منهم بعد الواحد، وأعطيهم شعراً يبقى ما دامت الشمس والقمر، ويعطونني شيئاً حقيراً فانياً.. وأنا سريعُ الضجَر، أحبُّ التنقل والسفر، فيعوقونني عن مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم هرباً منهم!

ثم إن «ابن العميد» كاتَبَ «عضدَ الدولة» بهذا الحديث، فورد جوابه:

«له حقُّ البقاء عندي كما يشاء، والرحيل متى يشاء».

وسار المتنبِّي من «أَرَّجان» قاصداً عضد الدولة.

كيف يلقى عضدَ الدولة؟ وماذا يهيء عند لقائه؟

إنها لبلاد جميلة، أشجارها كثيرة، ورياضها فوّاحة... وفيها مُتَنَزَّه «بوّان» الذي يُعَدّ من أجمل متنزّهات الدنيا. ولكن مع هذا.. لماذا لا يفارق الحزنُ قلبَ المتنبّي؟ لا بد أن في الأمر سِرّاً...

إنه في هذه الملاعب الجميلة التي يظنُّ من يراها أنها ملاعبُ الجنّ، لا ملاعبُ الإنس، لِسَعَةِ آفاقها وما فيها من عجائب.

ولكن، ماذا يسرُّ المتنبّي من هذا الحضور بين أقوام تعدَّدْت لغاتُهم، بحيث لو سار فيهم سليمان النبيُّ الذي أعطاه اللّه منطِق كلّ لغة لاحْتاجَ إلى ترجمان.

ما أجملها ملاعب! وما أحفَلَهَا بالعجائب! لكنّ الفتى العربي يُرى فيها غريبَ الوجه واليدِ واللسان.. يا لأصالة حبِّ العربِ في نفس المتنبّي!!

وكم تمنى أن يقف به حِصانه في هذا المكان، وينتهي من المسير والعناء والشقاء! ولكنَّ الحياة تدعوه إلى مواصلةِ المسير، لأن الوقوفَ معناه النهاية!

هذه المعاني نفسُها التي تحركت في صدر المتنبّي، هي ذاتُ المعاني التي صرَّح بها لعضد الدولة حين رآه..

ولمّا كان على أربعة فراسِخَ من «شيراز» استقبله رُسلُ عضدِ الدولة استقبالاً فخماً، ثم دخل البلد، فأُنزِلَ في دار مفروشة في ضيافة الأمير.

وبعد أن نفض عنه غُبارَ السفر، واستراح قليلاً رَكِب إلى عضد الدولة، فلما توسَّط الدارَ وانتهى إلى قرب السرير، قال:

«شكرتُ دابَّةً حملَتْني إليك وأملاً وقفَ بي عليك!»

ثم سأله عضدُ الدولة عن مسيره من مصر، وعن سيفِ الدولة، فذكَرَ له كثيراً مما لقِيَه، ثم انصرف.

مدح المتنبِّي عضدَ الدولة، فمنحه صِلاتٍ كثيرةً، وحمل إليه من أنواع الطِّيب، من الكافور والعنبر، والمسك، وأهداه فرَسَه الملقَّب «بالمجروح» وكساه رداءً من حرير، وعِمامةً قُوِّمَتْ بخمسمائة دينار، وسيفاً هنديًّا مرصَّعاً بالذهب.

وأقام المتنبِّي في «شيراز» زُهاءَ ثلاثة أشهر، ثم تهيّأ للرحيل، وأعدّ قصيدة الوداع التي يشكر فيها الأمير، ويُظهِرُ رغبتَه في الرجوع إليه، ويعتذر له بأن أهلَه في شوقٍ إليه وحزنٍ لغيابه:

ومن العجب أن تتضمَّن هذه القصيدةُ إحساسَ المتنبِّي بما تهيءُ له المقاديرُ من شرّ في طريقه، فيقول:

وأيًّا شئتِ، يا طُرُقي! فكوني! أذاةً، أو نجاةً، أو هلاكاً!

أكان المتنبِّي، بشعوره الخفيّ، يُحسُّ أن الموتَ ينتظرُه في الطريق؟ أم كان يُدرك أن الطرقَ مخيفة، وأن شرّاً يقف له في مُنْعَرَجات دربْهِ.

خرج المتنبِّي من شيراز، وهو مُثقَلٌ بالهدايا والأحمال، حتى بلغ «الأهواز» ثم قصد مدينة «واسِط» ثم انطلقَ حتى بلغ «جَبّل»، ونزل على صديقه أبي نصر الجبليّ. وهو واحدٌ من وجوه الناس في تلك الناحية، وله فضل وأدب. فاستقبله وأنزله دارَه، وسأله عن أخباره، وعمّا لقِي في رحلته، فجعل يصف له ابنَ العميد وعلمَه وكرمَه، وكرَمَ عضد الدولة، ورغبَته في الأدب وميله إلى أهله.

ولما أمسَيا قال أبو نصر للمتنبِّي:

ـ على أيِّ شيءٍ أنتَ عازم؟

ـ على أن أسافرَ في الليل، فإن السير فيه يخفُّ عليَّ!

ـ هذا هو الصواب.. لكنَّ لي رأياً أودُّ أن تأخذ به!

ـ ما هو الذي تُخفيه عني؟

ـ أن تَصْحبَ معك من رجال هذه البلدة، جماعةً يمشون بين يديك إلى بغداد!

فعبس المتنبِّي وقال:

ـ لِمَ قلتَ هذا القول؟ إنّ تحته أشياء؟

ـ لا.. بل لِتستأنسَ بهم!

ـ أما والسَّيفُ معي، فما بي حاجةٌ إلى مؤنس غيرِه!

ـ يا صاحبي! الأمرُ إليك، والرأيُ في الذي أشرتُ بِه عليك.

ـ إن تحتَ كلامك أشياءَ فعرِّفْني حقيقة الأَمر! وبيِّن لي ما وراءه يا أبا نصر!

ـ إسمعْ إن الجاهلَ «فاتكاً» الأسَديَّ كان عندي منذ ثلاثة أيام، وهو غاضبٌ عليك، لأنك هجوتَ ابن أُخته «ضَبّة»، وقد تكلم بأشياءَ تُوجبُ الاحتراسَ والتيقُّظ، ومعه جماعة من بني عمِّه، غاضبون لغضبه.

فقال غلامٌ للمتنبِّي، وكان عاقلاً:

ـ الصوابُ ما رآه أبو نصر. خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد!

فاغتاظَ المتنبِّي منه، ووبّخه، وقال:

ـ واللّهِ، لا أرضى أن يتحدّث الناسُ عنّي بأني سرتُ في حِراسة أحدٍ غيرِ سيفي.

فقال أبو نصر:

ـ أنا أوجِّه قوماً من قِبلي يسيرون بمسيرك وهم في حِراستك.

ـ واللّهِ لا فعلتَ شيئاً من هذا يا صاحبي! أمِنْ عبيدِ العصا تخاف عليَّ! واللّهِ، لو أن عصاي ملقاةٌ على شاطىء الفرات، وبنو أسد عطشى وقد نظروا إلى الماء يتقلَّب كبُطونِ الحيّات، ما جسر واحد منهم أن يشرب منه. من العار عليَّ أن أشغل فكري بهم لحظةً واحدة.

ثم ركب المتنبِّي، وأخذ طريقه حتى قارب «الصافية» وبينه وبين بغداد ستةَ عشر فَرْسَخاً.

وهنا.. راح غلمانُ المتنبّي يشعرُون بأن فرساناً غرباء يلحقون بهم، يُطِلُّون مرةً ويختفون أُخرى، فأخذهم الخوف.. وراحوا يتساءلون:

ـ من هؤلاء الذين يتبعون آثارنا؟ وماذا يريدون؟ فكان المتنبّي يهدّىءُ من مخاوفهم ويقول:

ـ لا تخافوا! هذا فاتكُ الأسدِيُّ! إنه لأجبَنُ من أن يُعارِضنا في طريقنا!

وفجأة، خرج عليه فاتك، ومعه ثلاثون فارساً برماحهم وسيوفهم: أين النجاة؟ أين المفرّ؟

لم يكن للمتنبّي إلا أن يُقاتِل.. وصاح به غِلمانُه: «الفِرارُ أولى!»

ربما حدَّث المتنبّي نفسه بالفِرار.. ولكن، بماذا يتحدث الناس عنه؟ هل يَليق بشاعر البطولة أن يطلب الحياة بالفِرار والعار.. وهو القائل:

وإذا لم يكُنْ من الموتِ بُدٌّ فَمِنَ العارِ أن تموتَ جبانا

إنها اللحظة الحاسمة.. فإمّا أن يفرَّ لِيعيشَ عيشة كاذبة مجلَّلةً بالعار، وإما أن يقاتِل ويموتَ ليعيشَ عيشةً خالدة مجلَّلة بالفخار!

في هذه اللحظة، خُيِّل إليه، وهو يَهِمُّ بأن يُدير فرَسه للهرب، أنه يسمع من يقوله له:

ـ ألستَ أنتَ القائل:

«الخيلُ واللّيلُ والبيداءُ تعرِفني!»

«بلى.. واللّهِ، أنا القائل ذلك.. هل يريدون منّي إلا حياتي؟ فلأبذُلها إذاً كريمةً في ميدان الشرف!»

وأدار فرَسَه نحو أعدائه، وقاتل بشجاعة، حتى أصابه سهمٌ قاتلٌ في صدره، فسقط عن فرسه مضرَّجاً بالدماء، وهو يقول:

ـ خذوا كلَّ شيء! واحفظوا ديواني الذي هو كلُّ ما تبقَّى لي من الحياة!

هكذا انطفأتْ هذه الشعلة في ميدان البطولة، وكانت، على ذلك الطريق المقفر، نهايةُ المطاف.

* * *

لا بأسَ أيها الشاعرُ الخالد!

لئنْ فاتَكَ إكليل المُلك الذي كافحتَ من أجله، بين أُناسٍ حملوه وهم غير جديرين به ـ فلن يفوتك إكليل الشِّعر الذي توَّجَتْك به إلاهةُ الشعر.

وقد ذبلتْ أكاليلُ الملوك، وذهبتْ دولة الأمراء، أما إكليلك الخالد فلا يزداد مع الأيام ـ إلا خُضرةً وحياة. وأما دولَتُك في عالم الشعراء فلا تزيد ـ مع الزمان ـ إلا قوةً وارتفاعاً.

ولئن فشلتَ في ادعائكَ النبوّة، وطلبِكَ الإمارة، وسعيك وراء الحكم، فيكفيكَ فخراً أن تكون شاعر العرب يترنَّمُ بشعرك كل لسان، ويهتزُّ له كل إنسان. وإكليلُ الشعر أخلدُ من أكليل الحكم والسلطان.

سلامٌ عليك أيها الشاعر العظيم، في موكب الشِّعر وفي موكب «الناجحين» الخالدين.



المتنبي في حضرة عضد الدولة

أسئلة حول «المتنبي»

١ ــ أين كانت مدرسة «المتنبّي» الأولى؟
٢ ــ كيف كان «المتنبّي» يواجه الصعاب التي تعترضه؟
٣ ــ ما الذي كان يزعج «المتنبّي» عندما كان في الشام؟
٤ ــ من أوّل من بايعه على النبوّة؟
٥ ــ ما الذي حمل الناس على الاعتقاد بكرامته؟
٦ ــ ماذا حصل للمتنبي بعد أن ادّعى النبوّة؟
٧ ــ كيف اتّصل «المتنبّي» بـ«سيف الدولة»؟
٨ ــ من هم الشعراء والأدباء والفلاسفة الذين كانوا يتّصلون بـ«سيف الدولة»؟
٩ ــ كيف كانت حياة «المتنبّي» في بلاط «سيف الدولة»؟
١٠ ــ لماذا قصد «المتنبّي» «كافوراً»؟
١١ ــ كيف كانت وفاة المتنبّي؟
١٢ ــ كي تبدو لك شخصيّة «المتنبّي»؟
١٣ ــ عدْ إلى القاموس واشرح ما يلي:

درج ــ الورّاقون ــ عاشر ــ الوافدون ــ النبوغ ــ المسخ ــ ضفائر الشّعر ــ اندمل الجرح ــ محفوف بالمخاطر ــ جرجر القيود ــ نفض عن رأسه غبار الموت ــ طأطأ رأسه ــ اللبدة ــ نهش عرضه ــ المكيدة ــ الهرج والمرج ــ تنكّد الجوّ ــ تقلّد سلاحه ــ ذاهل ــ أعدّ عدّته.

١٤ ــ قال الشاعر: «أيَّ مكانٍ أرتقي». لماذا تقدّم المفعول به على الفعل والفاعل؟

١٥ ــ قال الكاتب: «ليس بعجيب أن تراه». بم اختصّت «ليس» عن سائر أخواتها في هذه الجملة؟

١٦ ــ علّل كتابة ألف «طلى».

١٧ ــ علّل كتابة التاء في «الوشاة» و«وشايات»، و«ملقاة».

١٨ ــ علّل كتابة همزة «تطفئها».

١٩ ــ أعرب:

- يا له من صغير!
- بدأ الجوّ يكفهرّ.

٢٠ ــ موضوع مستوحى من القصّة:

قيل: «تحت المصائب تكبر القلوب».

اشرح هذا القول وناقشه.

المحتويات

الناجحون

مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالـم في الشرق والغرب، في الحرب والسلم، رجالاً ونساء، قديماً وحديثاً.

١ - زنوبيا	٢ - خالد بن الوليد
٣ - نابوليون بونابرت	٤ - بتهوفن
٥ - طارق بن زياد	٦ - هنيبعل
٧ - كولومبوس	٨ - عبد الرحمن الداخل
٩ - صلاح الدين الأيوبي	١٠ - مدام كوري
١١ - إديسون	١٢ - غاندي
١٣ - شكسبير	١٤ - المتنبي
١٥ - الإسكندر	١٦ - باستور
١٧ - ابن بطوطة	١٨ - هيلين كيلر
١٩ - شجرة الدر	٢٠ - ليوناردو دي فنشي

قالوا عن «الناجحون»..

«ابتعت المجموعة القيّمة التي أصدرتموها تحت عنوان «الناجحون» وحملتها إلى بيتي هدية إلى عائلتي الصغيرة، إلى بناتي، إلى زوجتي، وهدية لنفسي.

لقد قلتم إنكم تقدّمونها إلى الفتيان والفتيات، ولكني أؤكد لكم أنها بطباعتها الأنيقة وأسلوبها الممتع وتكثيف المعلومات بشكل ناجح أخّاذ تنفع الكل وتصل بينهم وبين معارف سبق أن قرأوها فنسوها، أو لم يسبق لهم أن ألمّوا بها...

ولقد التهمت هذه الكتب ووجدت فيها متعة وفائدة، وإني مؤمن بأن هذا الباب الذي فتحتموه إلى رياض المعرفة والثقافة والشجاعة والعمل والمثابرة سيكون طريقاً للنجاح، ودنيا لجيلنا وأجيال الشباب أيضاً.. ولعل الشباب في أمسِّ الحاجة إلى مثل هذه المفاتيح في عصرنا، عصر القلق والضياع والانتماء والمتاهات الكبرى...

«الناجحون» سلسلة تضيف صفحة مشرقة إلى سجلّ **«دار العلم للملايين»**، وإني كأستاذ جامعي، وأبٍ، ومربٍّ، أهنّئكم وأُهنّىء الذين أسهموا في هذه السلسلة».

الدكتور محمود محمد الحبيب

الأستاذ المساعد في الاقتصاد

البصرة - العراق